الجامع في الهدايات القرآنية

سورة إبراهيم

جمع واستنباط

نخبة من الأساتذة وطلاب العلم في التفسير والقراءات والحديث والعقيدة والفقه وأصوله واللغة العربية والتربية والعلوم الطبية وغيرها، من مختلف دول العالم عبر مجموعة واتساب متخصصة في الهدايات القرآنية

إشراف

أ.د. طه عابدين طه

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

رعاية

كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

ومؤسسة النبأ العظيم الوقفية بمكة المكرمة

قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ إبراهيم:[١]

١. يستفاد من النَّظر في آخر الرَّعد مع الحروف المقطَّعة في صدر هذه الآية، البرهان على نبوته عليه الصَّلاة، والسَّلام؛ وذلك لما أنكروا نبوته، تحداهم بأن يأتوا بمثل القرآن الذي لا يخرج عن حروف الهجاء التي يعرفونها.

٢. بيان إعجاز القرآن الكريم، فالقرآن ما هو إلا من هذه الحروف العربية، ومع ذلك عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله.

٣. إثبات نزول القرآن الكريم فهو منزَّل غير مخلوق.

٤. في قوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ برهان من براهين علو الله على خلقه.

٥. فيها: الإشارة إلى أن محمدًا صلى الله عليه وسلم أعظمُ الخلق نفعًا للبشرية جمعاء؛ لأنَّ من اهتدى به واتبع ما جاء به من ربه خرج من الظلمات إلى النور.

٦. فيها: تشريف، وتكريم للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ الله عزَّ وجل خصه بإنزال الكتاب إليه.

٧. فيها: الدلَّالة على شدَّة تأثير القرآن على النُّفوس، وهدايتها، وهو ما يسمى بالإعجاز النفسي، وقد وردت الكثير من الأخبار في الدلَّالة على هذا المعنى؛ كما في قصة النجاشي، وإسلام عمر بن الخطاب، وغيره، والتنبه على ذلك مفيد في الحقل الدعوي.

٨. فيها: عموم بعثته صلى الله عليه وسلم للبشرية؛ للعموم في لفظة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾.

٩. وفيها: الإشارة إلى أنَّ من قعد، وتوانى عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم فإنما يضرَّ نفسه؛ فالرسالة عامة، وأثرها شامل، والمحروم من حُرم.

١٠. وفيها: عموم الرسالة؛ للعموم في لفظة ﴿ٱلنَّاسَ﴾ وخصوص الاستجابة؛ لقيد ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾فعموم الرسالة عدلٌ الله، وخصوص الاستجابة فضلُ الله، وهكذا جميع أمره سبحانه دائر بين العدلِّ، والفضل، وتقدَّس وتنزه عن الظُّلم فهي كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ يونس[٢٥]

١١. في الآية دلَّيل: على أن القرآن معجزة مستمرة، وليست خاصَّة بعصر دون عصر، ووجه ذلك أن الله تعالى أخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة.

١٢. فيها: صحة إضافة الشيء إلى سببه المعلوم لقوله: ﴿لِتُخۡرِجَ﴾ يعني أنت، مع أن المخرج حقيقة هو الله، ولهذا قيده بقوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ حتى لا يُظن أن السبب مستقل، فإضافة الشي إلى سببه المعلوم أمر جائز.

١٣. في الجمع بين الهدايتين نكتة، وهي أن هداية التوفيق لا يمنحها الله إلا لمن استرشد بهداية الدلَّالة، والإرشاد النبوية.

١٤. فيها: وسطية المعتقد؛ فلا غلو، ولا جفاء؛ لا غلو في النبي – صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ هداية التوفيق لا يملكها؛ بل هي بيد الله وحده، ولا جفاء في حقه، وقدره – صلى الله عليه وسلم –؛ لأنَّه أرشدنا، وأخرجنا من الظلمات إلى النور.

١٥. فيها: أنَّ السبيل للخروج من الظلمات – على تنوعها، وكثرتها – إنَّما هو بإتباع القرآن.

١٦. فيها: أنَّ العودة للقرآن المنَّزل، والنبي المرسل، هما المخرج عندما تُطبق صخرة الظلمات على أمتنا.

١٧. تفيد: أن طرق الكفر، والبدعة كثيرة، وأما الخير فليس له إلا طريق واحد، فعبَّر عن الجهل بالظلمات، وعبر عن الإيمان والهداية بالنور.

١٨. فيها: أنَّ الظلمات كثيرة؛ لأنها طرق الشيطان.

١٩. فيها: أنَّ النور طريق واحد، وهو صراط الله سبحانه.

٢٠. فالآية دالة دلَّالة قاطعة على أن من لم يكن على صـراط الله – أي اتباع القرآن– فهو في الظلمات.

٢١. تفيد: أنَّ من أعظم مقاصد إنزال القرآن إخراج النَّاس من ظلمات الكفر، والشرك إلى نور الايمان والاسلام.

٢٢. فيها: حث العباد على الاستعانة بالله، يفيده قوله﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾.

٢٣. وفيها أن أحداً لا يستطيع الخروج من الظلمة – شركًا كانت، أو بدعة، أو معصية – إلا أن يأذن الله له بذلك.

٢٤. في نسبة الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الصراط لنفسه، ووصفه بالعزيز، فهو سلعة الله الغالية، لا يسلكه إلا من دفع ثمنه، وذلك بالتزام ما أمر به واجتناب ما نهي عنه.

٢٥. ومنها: ذكر ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾بعد ذكر الصـراط الموصـل إليه إشـارة إلى أن من سـلكه فهو عزيز بعز الله، قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمودٌ في أموره، حسن العاقبة.

٢٦. فيها: إشـارة إلى أنَّ مَن تمَسَّـك بالقُرآن فله العِزَّة وله الحمْدُ يُحمَد على فِعْله، وقَوْله وتَرْكِه؛ لأنَّه سبحانه لم يقل: إلى صراط الله، بل قال سبحانه: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

٢٧. في الآية الكريمة: ما يسـمى عندهم بدلَّ الكل من الكل، وقد تحرَّج ابن مالك من هذه التسمية لوقوعه في أسماء الله تعالى، وسماه في الخلاصة البدلَّ المطابق فقال:

مطابقاً أو بعضاً أو ما يشتمل.. عليه يلفى أو كمعطوفٍ ببل

إذ لا يقال: بدلَّ كل من كل؛ لأنَّ كلا إنَّما يطلق على ما يقبل التجزؤ، والله –سـبحانه– منزه عن ذلك، قاله في الأوضـح، والمسـألة لا تخلو من تعقب لا يتسـع له المقام خلاصـته ما ذكره الزرقاني: بأن التسـمية اصـطلاحية منقولة بعد التغليب؛ أي: غلبت الألفاظ التي تدلَّ على ذي

أجزاء على ما لم يدلَّ على ذلك، وهو أسماء الله تعالى؛ لكثرة الأولى، فقيل في الجميع كل، ثم سميت تلك الألفاظ ببدلَّ الكل من الكل.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ [إبراهيم:٢]

٢٨. فيها: أنَّ هذه الآية على الأصل لم تخرج عنه، في تقرير قاعدة أن اسم " الله" هو الاسم الذي تتبعه جميع الأسماء حتى في هذه الآية:﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾لا نقول: إن لفظ الجلالة "اللهِ" صفة بل نقول: هي عطف بيان؛ لئلا يكون لفظ الجلالة تابعاً تبعية النعت للمنعوت.

٢٩. فيها: وبضميمة ما قبلها: التعريف بالله عند الدَّعوة إليه؛ لأنَّه قال قبلها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾، ثم قال هنا، وعرف بنفسه ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

٣٠. بيان قدرة الله تعالى على بعث الناس ومجازاتهم؛ وهذا مأخوذ من قوله تعالى:﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ في سياق ذكر السماوات والأرض، ومعناه: أنّ الذي له ما في السماوات والأرض جميعًا قادر على أن يحييكم بعد الممات.

٣١. تفيد: تعظيم الرب جل، وعلا، وبيان سعة ملكه وقدرته وجبروته.

٣٢. أن كل أحد دون الله تعالى مملوك، بدلالة عموم ملكه سبحانه الذي يدل على قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾

٣٣. في الآية دلالة على عظمة السماوات والأرض، يدل على ذلك أن الله تعالى خصّهما بسلطانه عليهما، لأنهما من أعظم المخلوقات، ولأنهما قد اشتملا على جميع المخلوقات(١).

---

(١) ينظر: البحر المحيط في التفسير (٥٥٣/١).

٣٤. وجوب تعظيم الله تعالى، وتقديره حقّ قدره فمن له السماوات والأرض فهو عظيم يستحق التعظيم، فكل من لم يستحضر عظمة الله تعالى في خلقه وقع في عدم التعظيم قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الزمر: [٦٧].

٣٥. وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، فمن له ملكوت السماوات والأرض فهو وحده المستحق للعبادة.

٣٦. أهمية ربط الخلق بالخالق، وتذكيرهم بأنه هو القادر على التصرف في السماوات والأرض، لأن له ملكهما: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

٣٧. تفيد: بيان الطريق بالبرهان والحجة لمن يكفيه ذلك، أو بالتهديد، والوعيد للجاهل فعلى حسب العقول يأتي الخطاب.

٣٨. أهمية أسلوب الترهيب في الدعوة إلى الله تعالى. وكذا في مجال التربية والتعليم، بحسب الحال والأشخاص، حيث قال تعالى:﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾.

٣٩. فيها التنفير من الكفر وأهله.

٤٠. فيها: التخويف، والتحذير من عذاب الله عزَّ وجل وبيان شدته.

قال تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾إبراهيم:[٣]

٤١. فيها: مناسبة لما قبلها: فإنه تعالى لما توعد الكافرين، ذكر أن سبب كفرهم: هو أنَّهم يؤثرون ويقدِّمون الدنيا على الآخرة، فقدَّموها على دينهم، ويصدون غيرهم عن سبيل الله، فهم ضلوا وأضلُّوا، ويريدون عوجاً، بحذف اللام، أي يريدون لها عوجاً.

٤٢. تشير إلى: إرادة الإنسان وأنه يكفر مختاراً، وأنه يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة طوعاً؛ بدلَّالة السين، والتاء في قوله: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ للمبالغة، والإمعان، والتأكيد، والطلب.

٤٣. فيها: أنَّ من أظهر خصـــال الكفَّار إيثار الدنيا على الآخرة، ولذلك قدَّمها في ذكر صفاتهم الذميمة.

٤٤. فيها: التزهيد من الركون للدنيا، وذمها وذلك من تسميتها ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾.

٤٥. تفيد: استمرارهم، ودأبهم على الصد عن سبيل الله عزَّ وجل دلَّ على ذلك الفعل المضارع ﴿وَيَصُدُّونَ﴾.

٤٦. تفيد أن الصد عن سبيل الله والدعوة إلى الله من أخطر صفات أهل الكفر، وهو ما يقوم به كفار أهل زماننا من اليهود والنصار من منع طريق الدعوة أن يصل.

٤٧. تفيد أن الدعوة إذا فتح لها الطريق فإنها ستصل بسهولة ويسر، من دون حرب أو قتال.

٤٨. ســـياق الآية فيه الذم لحال الكفرة من تقديم العاجل على الآجل، وتحذير للمؤمنين أن يكون حالهم مثلهم.

٤٩. تفيد: أن حال الكفرة الأصـــلي تقديم عاجل الدنيا على الآخرة، مع المداومة في محاربة دين الله.

٥٠. ومنها: من امتلأ قلبه بالدنيا اعوجت سبله في تحصيلها.

٥١. تفيد: أن الذم في محبة الحياة الدنيا المانعة من إرادة الآخرة.

٥٢. فيها: ذم إيثار الدنيا على الآخرة.

٥٣. تفيد: أن من آثر دنياه أضرَّ بأمر آخرته ولم تحصل له دنياه، وهذه قاعدة ذكرها ابن حجر رحمه الله مستخلصا عبرها من غزوة أحد فلله دره وعليه أجره رحمه الله تعالى.

٥٤. تفيد: أن الكفَّار لا يكتفون بضلالهم بل يصدون عن السبيل الحقة، ففيه تحذير منهم.

٥٥. تفيد: أن طرق الباطل معوجة، بعيدة عن الخير.

٥٦. يفيد: أن محاولة الكفَّار تشـويه الدين الصـحيح، وتنفير النَّاس عنه، محاولة قديمة متأصـلة فيهم.

٥٧. تفيد: أهمية التعريف بسبل الباطل لتجتنب، فعرَّف الله هنا الكافرين، وذكر صفاتهم للتنفير منها، ومنهم.

٥٨. تفيد: أن الضَّلال مراتب ودركات ﴿ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ﴾.

٥٩. تفيد: ابتعادهم الشديد عن الحق، ويدلَّ على ذلك الإشارة بالبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

٦٠. تفيد: أن الضَّلال الحقيقي هو الضَّلال عن الدار الآخرة، والضياع الحقيقي هو الركون إلى الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾[إبراهيم:٤]

٦١. فيها: نوع من أنواع الوقف الممنوع كما لو وقف وقفاً يتغيَّر به المعنى: كالوقف على المنفيّ الذي بعده إيجاب؛ مثل الوقف على: ﴿رَّسُولٍ﴾من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾فإنّه يؤدّي إلى نفي إرسال جميع الرُّسل-عليهم السَّلام.

٦٢. فيها: مجيء ﴿مِن﴾زائدة لفظاً زائدة معنى" وفي المسألة خلاف معروف في اطلاق الزيادة، ويطلقون عليها حروف الصلة تأدبا مع القرآن الكريم.

٦٣. فيها: أنَّ اللسان يطلق على القول كثيراً في اللغة العربية، كما في هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾.

٦٤. تفيد: جواز تسمية الشيء باسم آلته لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾أي بلغة قومه.

٦٥. هذه الآية تقتضي تقدم اللغة على البعثة، وفي المسألة خلاف طويل الذيل كثير النيل ابتداء اللغة وهل هي توقيفية؟ أم أنها اصطلاحية عقد ذلك صاحب المراقي بقوله:

واللغة الرب لها قد وضعا وعزوها للاصطلاح سُمعا

٦٦. تفيد: أن السنة هي – بنص القرآن – تبيين مراد التنزيل: فهي تشرح ما قد يقع في فهمه من شبهة، أو خلاف، وهي تفصل مجمله، وتقيد مطلقه وتخصص عامه.

٦٧. أهمية اللغة في التواصل بين النَّاس.

٦٨. فيها: أنَّ علوم العربية الموصلة إلى تبيُّن كلامه سبحانه وكلام رسوله أمورٌ مطلوبةٌ محبوبةٌ لله، لأنَّه لا يتمُّ معرفة ما أنزل الله على رسوله إلا بها "[١].

٦٩. فيها: دلَّالة على أهمية تعلم اللغة العربية للمسلم الأعجمي؛ ليفهم أمور دينه، وقد فقه هذا الأمر السابقون في زمن الإسلام؛ فحرصوا عليه حتى صاروا سادة في سائر العلوم، وفي مقدمتها العربية.

٧٠. فيها: أنَّ من بلغه القرآن بلغة لا يفهم منها شيئاً فإنه لا تقوم عليه الحجة"[٢].

٧١. فيها: أهمية البيان، والبلاغة في الدَّعوة؛ لقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾وقوله: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا﴾ إبراهيم[٦٣] .

٧٢. فيها: أنَّ الحجة لا تقوم على المكلف إلا بفهمها، ومعرفة معناها.

٧٣. فيها: أنَّه لا تناقض، ولا مدخل لمعترض أن يقول أن محمداً صلى الله عليه وسلم عربي، وبعث إلى العجم، أو إلى الثقلين، فالجواب عن ذلك أن الأمر لا يخلو إمَّا أن ينزل بجميع الألسنة، أو واحد منها ولا حاجة لنزوله بجميع الألسنة؛ لأنَّ الترجمة تنوب عن ذلك، وتكفي التطويل فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّهم أقرب إليه فإذا فهموا عنه، وتبينوه، ونقل عنهم، وانتشر قامت التراجم ببيانه، وتفهيمه، كما نرى الحال، ونشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم؛ ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها، وكثرتها وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم

---

(١) ينظر: تفسير السعدي ص٤٢١

(٢) ينظر: تفسير ابن عثيمين– سورة الأنعام ص١٠٢.

الرسـول العربي كل أمة بلسـانها ما كلم أمته التي هو منها، يتلوه عليهم معجزاً لكان ذلك أمرا قريباً من الإلجاء"[1].

٧٤. فيها: رحمة الله بالعباد، حيث أرسل الرَّسل بلغة أقوامهم حتى يفقههم، ويفهمهم ما بعث به إليهم بصورة واضحة، وبيان واضح، تنقطع به الحجة، وتبان به المحجة، ويحصل الإعذار كما قال تعالى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ البقرة:[١٦٥] وهذه الحجة بينت في سُورة طه ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ طه:[١٣٤]

٧٥. فيها: الرَّد على القدرية في قوله ﴿فَيُضِلُّ﴾﴿وَيَهۡدِي﴾

٧٦. فيها: أنَّ إضلال الله تعالى من يشاء هو لحكمة بالغة قد لا يدركها العباد؛ دلَّ على ذلك ختم الآية باسم ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾فهو يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدلِّه سبحانه وتعالى.

٧٧. وفيها: أنَّ التوفيق، والخذلان بيد الله، يهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الضلالة.

٧٨. تفيد: أن الهداية بيد الله وحده، وأن ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ المائدة:[٩٩].

٧٩. فيها: إثبات صفتي العزة، والحكمة لله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ إبراهيم:[٥]

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٩.

٨٠. تفيد: وبضـــميمة ما قبلها: الاعتناء بالدعاة إلى الله، وتأهيلهم؛ لأنَّه قال قبلها ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾، وهذا تأهيل، ثم قال هنا ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وهذا أمر بعد التأهيل، والعلم عند الله تعالى.

٨١. فيها: بذل الوسع، والاجتهاد في سبيل تحقيق الهدف فلابد للداعية من دفع، ومكابدة، فيخرج الجاهل، والمعاند من حيز إلى حيز جديد﴿أَخۡرِجۡ﴾.

٨٢. فيها: توجيه للداعية بحسن التبليغ، والرأفة بالمدعو؛ لأنَّ المرء أشفق، وأرحم بأهله، وقومه.

٨٣. فيها: أنَّ خطة الدَّعوة يجب أن تكون في منتهى الوضوح، وليس عملاً عفوياً اعتباطياً.

٨٤. تفيد: أن أجلَّ وسيلة، وأعظم ما يعين الدعاة في إيصال دعوتهم، وتحقيق أهدافهم كتاب الله عزَّ وجل﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

٨٥. فيها: تأييد الله لرسله – عليهم السَّلام.

٨٦. فيها: العناية بتعليم الجاهل، والأخذ بيده والرفق به؛ ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٨٧. فيها: بيانُ أنَّ المَقْصُـــودَ مِنَ البِعْثَةِ واحِدٌ في حَقِّ جَمِيعِ الأنْبياء عَلَيْهِمُ السَّـــلام، وهو أنْ يَسْعَوْا في إخْراجِ الخَلْقِ مِن ظُلُماتِ الضَّلالاتِ إلى أنْوارِ الهِداياتِ.

٨٨. يفيد قوله: ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: تعدد المهلكات، وطرق الضَّلال، وفي قوله: ﴿ٱلنُّورِ﴾ تفيد: أنَّ طريق النجاة واحد.

٨٩. تفيد: بيان شدة غفلة بني إسرائيل (قوم موسى عليه السَّلام)، وكثرة نسيانهم لأنعم الله تعالى، بالرغم من قرب عهدهم بها؛ مما يدلَّ على ما في قلوبهم من القساوة؛ وغلظ الطباع، لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾.

٩٠. فيها: أن النَّاس يحتاجون إلى التذكير حتى مع علمهم، فالمتابعة ضـــرورية في جميع مراحل الدَّعوة ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾

٩١. تفيد: فضيلة الصحبة الصالحة التي تذكر العبد بأيام الله عليه؛ ليؤوب إلى ربه، ويعود إلى صوابه، ويشكر نعمة الله عليه؛ وذلك لأنَّ الصاحب خير من يعلم تلك الأيام التي مر بها صاحبه، كما قال أحد أصحاب الوزير المهلبي حين تولى الوزارة ودارت الأيام:

ألا قل للوزير فدته نفسي مقالة مذكر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول لضنك عيش ألا موت يباع فأشتريه

كان صاحبه يذكره بأبياته التي يقول فيها:

ألا موتٌ يُباعُ فأشتريه فهذا العيشُ ما لا خَيرَ فيهِ.
ألا موتٌ لذيذُ الطعمِ يأتي يُخَلِّصَني من العيشِ الكَريهِ.
إذا أبصرتُ قبراً مِن بعيدٍ وددتُ لو أنني مما يليهِ.
ألا رَحِمَ المهيمنُ نَفْسَ حُرٍ تصدَّقَ بالوفاةِ على أخيهِ.

٩٢. تفيد: أن لحكاية القصص أثر بليغ في الإقناع، وهو فن من فنون الدَّعوة لا يُتقنه من الدعاة إلا قليل اللهم اجعلنا من القليل.

٩٣. جمع الأيام يدلَّ على تعددها، وتنوعها، وتنوع العبر المستخلصة منها، وعظم الفوائد المرجوة من استقصائها، وتعلمها، ويدلَّ على ذلك قولِه تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٩٤. فيها: تحريض، وترغيب لأهل الاختصاص، والدعاة بدراسة أيام الله، واستجلاء الآيات، والعبر، والمواعظ من ورائها سواء أكان ذلك في دروسهم، أو مؤلفاتهم أو غير ذلك.

٩٥. فيها: إشارة إلى أن الِانْتِفاعُ بِهَذا النوع مِنَ التَّذْكِيرِ لا يُمْكِنُ حُصُولُهُ إلّا لِمَن كانَ صابِرًا أوْ شاكِرًا، أمَّا الَّذِي لا يَكُونُ كَذَلِكَ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَذِهِ الآياتِ.

٩٦. فيها: أنَّ الإيمان صبر، وشكر، كما قاله بعض السلف، وقرره شيخ الإسلام، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، وقد قرن الله بينهما في هذه الآية الكريمة.

٩٧. فيها: التَنْبِيهٌ عَلى أنَّ المؤْمِنَ يَجِبُ أنْ لا يَخْلُوَ زَمانُهُ عَنْ أحَدِ هَذَيْنِ الأمْرَيْنِ، فَإنْ جَرى الوَقْتُ عَلى ما يُلائِمُ طَبْعَهُ ويُوافِقُ إرادَتَهُ كانَ مَشْغُولًا بِالشُّكْرِ، وإنْ جَرى بِما لا يُلائِمُ طَبْعَهُ كانَ مَشْغُولًا بِالصَّبْرِ.

٩٨. فيها: وجوب الشُّكر لله على إرسال رسله، وكذا وجوب الصَّبر على اتباع رسله؛ لقوله في ختامها ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

٩٩. خصَّ هذين الصِّنفين بالذِّكْر؛ لأنَّهم هم الذين يعتبرون بالآيات، ولا يَغْفُلون عنها"[١]

١٠٠. فيها: الحث على كثرة الصَّبر، والشكر دلَّ على ذلك صيغ المبالغة.

١٠١. فيها: أنه قُدِّمَ الصَّبَّارُ على الشَّكُورِ؛ لكونِ الشُّكر عاقبةَ الصَّبر "[٢]

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ إبراهيم[٦]

١٠٢. فيها: وبضميمة ما قبلها: سرعة امتثال الأنبياء لله؛ لأنَّه قال قبلها: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال هنا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

١٠٣. فيها: الحث على تذكير الخلق بنعم الله عليهم، فإنها من أفعال الأنبياء، فإن التذكير بنعم الله من مهام الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين، والذكرى طريق للشكر، وبالشكر تزداد النِّعم.

١٠٤. فيها: أنَّ من الأساليب الوعظيَّة تذكير الفاسق بمنة الله، ونعمه.

١٠٥. فيها: أنَّ من أجل وسائل تعبيد الخلق لله ذكر آلائه وعظيم نعمه على عباده حتى يحبوه فيطيعوه، ولا يعصونه، يقول ابن القيم في علاج العصاة وتعبيده لخالقهم: "فاجتهد أن

---

(١) التفسير الميسر ١/٢٥٥.

(٢) تفسير الشوكاني ١/٥.

تُحبِّب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه، وإحسانه، وصفات كماله، ونعوت جلاله، فإن القلوب مفطورة على محبته، فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذُّنوب، والإصرار عليها، والاستقلال منها.

١٠٦. فيها: الأدب مع الله بنسبة النعم إليه.

١٠٧. تفيد: أنَّ النجاة من الأعداء من أعظم النعم، وقد ذكرهم بها في عدة آيات.

١٠٨. فيها: شدة العذاب الذي كانوا فيه، وتدلَّ على قسوة فرعون وآله، وغلظ قلوبهم حيث مارسوا هذه الأعمال الوحشية من الذبح للأبناء، واستحياء النساء.

١٠٩. فيها: أنَّ الإذلال، وقتل الذرِّية، وسبي النساء من صور العذاب.

١١٠. تفيد: أنَّ بقاء المرأة في غياب الولي سبيل للذل، والإهانة تأباه الفطر السوية، والنفوس الأبية.

١١١. تفيد أن الله يبتلي العباد بأنواع من البلايا والمحن، ليمتحن صبره من جزعه.

١١٢. تفيد أن الفتن والابتلاءات لا يكشفها إلا الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ إبراهيم[٧].

١١٣. فيها: أنَّ أمره تعالى واضح، وليس فيه غموض لقوله ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾.

١١٤. الآية تعتبر مستند للقاعدة المشهورة أنه: إذا اجتمع قسم، وشرط فالجواب يكون للسابق منهما كما في هذه الآية الكريمة، وكما في عدد من الآيات منها قوله تعالى ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يس:[١٨].

١١٥. فيها: أنَّ صدر الآية جاءت تحدثنا عن الشاكر، ونصفها الآخر تحدثنا عن الناكر، وعليه ففيها تقرير لقاعدة أن القرآن جاء مثاني تثنى فيه الأخبار، والأحكام.

١١٦. في تقديم الشُّكر على الكفر، والزيادة على العذاب دلَّيل على أن رحمته تعالى غلبت غضبه.

١١٧. الشُّكر عام، وهو أوسع في مدلَّوله من ما هو مشتهر عن عامة النَّاس أنه باللسان، فالشكر يكون بالقلب، واللسان والعمل قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾.

قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجب

١١٨. تفيد: أن الله شكور، ومن شكر الله للعبد الزيادة مقابل شكر العبد نعمه، وآلائه جلَّ وعلا.

١١٩. فيها: فائدة بلاغية وهي المقابلة بين الشُّكر، والكفر، والزيادة، والعذاب.

١٢٠. فيها: حذف أنَّ المتعلق فأفاد العموم في قوله تعالى ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾.

١٢١. ومنها: وعد حق من الله ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ ومن صور هذه الزيادة، وأنفعها البركة، الرضا، والقناعة، لا يشترط من تلك الزيادة تكن مادية.

١٢٢. فيها: أنَّ العبد مخيَّر في سلوك أحد السبيلين، وفيه رد على من الجبرية.

١٢٣. ومنها: أنَّ الله سبحانه قضى أن لا يُنال ما عنده إلا بطاعته.

١٢٤. فيها: تودد الله لعباده، وأن رحمته سبقت غضبه؛ لأنَّه عبَّر عن الزيادة بقوله: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ وعبَّر عن العذاب بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾، ولم يقل: "لأعذبنَّكم".

١٢٥. في الآية إشارة إلى تحقق وعد الله؛ وذلك لما فيها: من المؤكدات.

١٢٦. فيها: أنَّ الشُّكر من أسباب زيادة النعم.

١٢٧. فيها: محبة الله تعالى لهذه الصفة العظيمة، وهي صفة الشُّكر.

١٢٨. في عبادة الشُّكر معنى لطيف، يعنى أن الله عزَّ وجل لا يحمد إلّا بتوفيق منه، فيجب أن يحمد على توفيقه، ثم وجب في الحمد الثَّاني ما وجب في الحمد الأوَّل، ثم إلى ما لا نهاية له، وكما قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةٌ عليّ له في مثلها يجب الشُّكر

فكيف بلوغ الشُّكر إلّا بفضله وإن طالت الأيّام واتّصل العمر
إذا مسّ بالسرّاء عمّ سرورها وإن مسّ بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلّا له فيه نعمة تضيق بها الأوهام والبرّ والبحر

١٢٩. تفيد: أن شكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وأخرى.

١٣٠. تفيد: أن الشُّكر به تحفظ النعم، وهذا بدلَّالة فحوى الخطاب.

١٣١. فيها: ربط النتيجة بالسبب، والشرط بالمشروط من بديهيات، وأساسيات التربية.

١٣٢. تفيد: أن للطاعات ثواباً دنيوياً، يجد العبد أثر عبادته، وطاعته، وقد لا يكون مادياً، فيجده على هيئة انشراح في الصدر، سكينة في القلب، طمأنينة يشعر بها، وحلاوة في القلب، قال ابن تيمية رحمه الله " إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً في صدرك، فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور.

١٣٣. من جميل عباراتهم الرائقة لفظاً، ومعنى عن الشُّكر قولهم" النعم وحشية فاشكلوها بالشكر " وقولهم إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر؛ وقالوا: النعم إذا شكرت قرت وإذا كفرت فرت" وكله مستقى من معين هذه الآية ومن هداياتها.

١٣٤. وفيها: أنَّ كفران النعم من أسباب زوالها.

١٣٥. وفيها: كفران النعم من أسباب الهلاك، والدمار.

١٣٦. تفيد: الترغيب في شكر النعم، والترهيب من كفرها.

١٣٧. فيها: التخويف من عذاب الله عزَّ وجل، وأن من أسبابه عدم الشُّكر.

١٣٨. يستفاد من الآية أنَّ الكفر خلاف الشُّكر، كما أنَّ الذّم خلاف الحمد، فالكفر – ستر النعمة، وإخفاؤها والشكر نشرها، وإظهارها، وبضدها تتبين الأشياء. وكما قيل: والضد يظهر حسنه الضد.

١٣٩. فيها: أنَّ النعمة تستوجب من العبد إدامة الشُّكر، والثناء مسديها عزَّ وجل على هذا الحفظ، والاختصاص حتى لا يسلب.

١٤٠. تفيد: أن الله سبحانه، وتعالى قطع بالمزيد مع الشُّكر وأكده ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، ولم يستثنِ فيه، واستثنى في خمسة أشياء:

١- الإغناء ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ التوبة:[٢٨]

٢-الإجابة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ الأنعام:[٤١]

٣- الرزق ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ البقرة:[٢١٢]

٤- المغفرة ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ المائدة:[٤٠]

٥- التوبة ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ التوبة:[٢٧]

نقله بمعناه التاج السبكي"[(١)].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ إبراهيم[٨]

١٤١. فيها: مع ما قبلها، وما بعدها فصاحة نبي الله موسى عليه السَّلام بحيث يستميل قومه بأدلَّة شرعية، وعقلية، وتاريخية، وواقعية.

١٤٢. يفيد: تسجيلاً على بني إسرائيل بالسفاهة، والحماقة، وضعف الإيمان، وقلة الشُّكر لله تعالى، حيث وجه موسى عليه السَّلام خطابه لهم بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

١٤٣. تفيد: أنَّ المخلوقات الأرضية يبعد أن تجتمع كلها على الكفر بالله؛ بل إن الكرة الأرضية لم تخل ولن تخلو يوماً ممن يعبد الله تعالى، إلا ما جاء في آخر الزمان، وقرب قيام السَّاعة؛ لقول موسى عليه السَّلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

(١)معيد النعم ومبيد النقم ص١٢

١٤٤. تفيد: أنَّ الأصل في الخلق المحبة، والاذعان لصاحب النعمة، وعدم الكفر به؛ وأن عكس ذلك هو نقيض الفطرة السوية، لقول موسى عليه السَّلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ ولم يقل: (إذا تكفروا..). ومعلوم الفرق بين (إن) و(إذا).

١٤٥. فيها: أهمية التذكير باستغناء الله عند الدَّعوة إليه، وهذا أمر هام، وله تأثيره.

١٤٦. يفيد: أسلوب المخالفة: أنَّ العز، والشرف، والرفعة، والمكانة، والغني، وتحصيل المحامد إنَّما يكون في شُكر النعم، والعبادة بالتوحيد، والطاعة.

١٤٧. فيها: اختصاص "إن المكسورة" بدخول لام الابتداء على خبرها كما في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ودخولها مشروط بأن يكون مؤخراً، فلو قدم لم تصحبه اللام.

١٤٨. فيها: أنَّ العبادة شرف للعباد، وعز، وسعادة في الدنيا، والآخرة، لأنَّهم بحاجة إلى ربِّهم، لا غنى لهم عنه طرفة عين، وهو غني عنهم وعن عبادتهم.

١٤٩. فيها: هوان الخلق على الله إذا لم يعبدوه.

١٥٠. فيها: أنَّه تعالى حمد نفسه، وأنه لا يبلغ أحدٌ ثناءً عليه كما أثنى هو على نفسه – جل ذكره، وفي الحديث: "لا أحصي ثناء عليك كما أثنيت على نفسك"(١).

١٥١. فيها: إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، وهما الغني، والحميد، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى التَّوسُّل بهما.

١٥٢. في اقتران اسمين من أسماء الله، وهما الغني، والحميد إشارة إلى كرم الله تعالى؛ لأنَّه مع غنائه عن أعمال العباد هو شكور حميد بحيث يجازي الكثير بالقليل.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾إبراهيم[٩].

(١) أخرجه مسلم ١/ ٣٥٢؟

١٥٣. فيها: أخذ العظة، والعبرة مما حصل للأمم السَّابقة.

١٥٤. تفيد: بلاغة القرآن الكريم، وظهور صـــدقه، وأنه من عند الله تعالى حيث يأتي بأخبار الأمم السَّابقة، والقرون السَّالفة بترتيب مناسب، وبأسلوب واضح دون تناقض.

١٥٥. وفيها: ضرب المثل بالأمم الثلاثة؛ لأنَّهم أعتى، وأكثر عدة، وعتاداً.

١٥٦. وفيها: سنة الله جارية في إهلاك من حاد عن الطريق.

١٥٧. وفيها: من باب عدلَّ الله، وحكمته أنه لا يعذب إلا بعد إرســـال الرَّســـل، وإنزال الكتب.

١٥٨. تفيد: أنَّ جميع الرَّسل أيدهم الله بالبيِّنات التي تدلَّ على صدقهم.

١٥٩. فيها: أنَّ الرَّسل تأتي بالحجج الواضحة التي هي أوضح من الشمس في رابعة النهار، وكل من دعا بدعوتهم، وسار على نهجهم فإنه يأتي بالبيِّنات الواضحات، ولكن ليست المشكلة في مدى وضوح الحجة، وبيان المحجة، ولكنها في الأعين التي لا تبصر، وفي القلوب التي تعي.

فالحق شمس والعيون نواظر لكنها تخفى على العميان

١٦٠. يفهم من الآية: أن نبي الله نوحاً عليه السَّلام هو أول الرَّسل لتقديمه في الآية.

١٦١. في تخصيص عاد، وثمود، بالذكر إشارة إلى شهرتهم، وعظيم شرهم.

١٦٢. تفيد: أنَّ الغيب لله والأنَّبياء لا يعلمون منه إلا ما أخبرهم الله تعالى به ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾.

١٦٣. فيها: أنَّ حروف الجر تنوب بعضها عن بعض في كثير من المواضع، فقد أتت ﴿فِيٓ﴾ هنا بمعنى "إلى" الغائية؛ كناية عن عدم الرَّد، وعن ترك الكلام.

١٦٤. وفيها: ديدن أهل الباطل الإعراض، وبث الشَّكوك، والشُّبه.

١٦٥. فيها: بيان انتكاس فطرة هؤلاء السفهاء؛ لأنَّ الأصل في الذي هو في شكٍّ من قضية ما، يدعوه ذلك إلى أن يبحث، أولاً، لا أن يعلن الرَّد والكفر مبدئياً، وقد صدق ابن القيم يوم قال:

إن البدار برد شيء لم تحط علما به سبب إلى الحرمان

١٦٦. في الآية دقة العبارة القرآنية، في دقائق الفروق بين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا﴾في سُّورة إبراهيم، وبين "إننا" في سُّورة هود، فالسياق يظهر الفرق بين المقامين فآيات هود تذكر تفاصيل الأقوام البائدة، وقصصهم واحدة واحدة، قصة قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، ومدين وقصة موسى مع فرعون، بخلاف آية إبراهيم فإنها بيان لموقف الأمم من الرَّسل عموماً على وجه الإجمال لا على وجه التفصيل، وأوجز في مقام الإيجاز.

١٦٧. تفيد أن الله أرسل رسله للخلق على مراحل، لإقامة الحجة عليهم، وجميعهم يدعون دين واحد، وقد ختمهم نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، فأرسله بهذه الرسالة العامة والشريعة التامة التي كان كل الأديان إعدادا لها.

١٦٨. فيها: أنَّ القرآن الكريم اشتمل على الكثير من الآيات التي تشير إلى أن قراءة المشاعر تعتمد على إشارات الجسم، وتعبيرات الوجه، فوضع اليد على الفم عند الشك، والريبة، أو التردد، ودوران العيون في المحاجر عند الرعب العظيم كما في قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ﴾

قال تعالى:﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾إبراهيم[١٠]

١٦٩. دعوة الرَّسل لأقوامهم التَّفكر في خلق السَّماوات، والأرض التي تدلُّ على عظمته وحدانيته.

١٧٠. فيها: استدلَّال الرُّسل الكرام عليهم الصَّلاة، والسَّلام على أقوامهم بدلَّيل الفطرة: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٧١. فيها: أنَّ وجود الله عزَّ وجل، وتوحيده بالعبادة مما لا شـــكَّ فيه، وقد دلَّ عليه العقل والفطرة.

١٧٢. فيها: الاستدلَّال على توحيد الألوهية بتوحيد الرُّبوبيَّة، أو الاستدلَّال بما يقر به الخصم على ما ينكره، وإلزامه به، فهو وحده الذي فطر السَّـماوات والأرض، وخلقهما على غير مثال سابق، وعليه فهو الذي يجب أن يفرد بالعبادة؛ لأنَّه هو المتفرد بالخلق، والرزق، والتدبير.

١٧٣. فيها: أنَّه من الشُّبه التي يركز الكفَّار على طرحها أنَّ الرُّسل خالفوا العادات، والتقاليد، وأنهم يريدون أن يغيروا دين الآباء، وهي شبة لا تقوم على ساق.

١٧٤. فيها: اتفاق الرُّسل في أساليب الدَّعوة، وجدال الكفَّار.

١٧٥. تفيد: أدب الرُّسل مع الله عزَّ وجل بنسبه الدَّعوة إليه، وتأخيرهم إلى آجالهم المضروبة إليه سبحانه وتعالى.

١٧٦. فيها: جملة من القواعد التي لا يسع المكلف جهلها:

منها: أن الانكار إذا وقع في الاثبات يجعله نفيا – كقوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي لا شـــكَّ فيه.

ومنها إذا وقع في النَّفي يجعله اثباتاً، نحو: قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ الضـــحى:[٦] أي: قد وجدناك، وبيان ذلك: أن انكار الاثبات، والنفي نفى لهما، ونفى الاثبات نفى – ونفى النَّفي اثبات، ثم الانكار قد يكون للتكذيب، نحو ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ القيامة:[٣٦] وقد يكون للتوبيخ، واللوم على ما وقع. نحو: «﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥﴾ الصـــافات:[٩٥] وهذه الآية من كلام إبراهيم عليه السَّلام لقومه، حينما رآهم يعبدون الأصنام من الحجارة.

١٧٧. فيها: أنَّ مغفرة الذُّنوب من أهمَّ المطالب.

١٧٨. ومنها: عظيم حلمه جلَّ جلاله يشكون، ويكفرون فيناديهم برحمته ليغفر لهم.

١٧٩. ومنها: الداعية الفقيه تدور دعوته بين الترهيب، والترغيب، على حسب مقتضى الحال.

١٨٠. ومنها: سعة رحمة الله فإنَّ أبوابه مفتوحة مهما تعاظمت الذنوب.

١٨١. فيها: أنَّ مجارات الداعية لمن يدعو ليصل بهم لليقين الذي يلجمهم.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إبراهيم[١١]

١٨٢. وقد يظهر للمتأمل أن سُورة إبراهيم أجملت تفصيل ما ورد في السُّور التي ذكرتها، فهناك أفردت قصة كل نبي، وهنا أتى الكلام عن الهدف العام، والقاسم المشترك لكل الرُّسل، والموقف المتشابه بين جميع المرسل إليهم.

١٨٣. تفيد: الترغيب في لين جانب الدعاة إلى الله، وتواضعهم، وحرصهم على دعوة الخلق، والصبر على المدعوين اقتداء بأفضل الخلق رسل الله.

١٨٤. تفيد: الترغيب في ربط المدعوين بالله عزَّ وجل ببيان عظيم كماله، وجلاله وكريم نعوته وصفاته ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ﴾.

١٨٥. تفيد: كثرة المنن، والنعم من الله عزَّ وجل على عباده، واستمرارها، وأعظمها النعم الدينية.

١٨٦. الاعتراف بما لك، وما عليك، وعدم خداع الخصم في أول الجولة حتى لا تسقط في النزال فيظن الخصم أن الحق معه.

١٨٧. وفيها أن هضم النفس من صفات الدُّعاة إلى الله عزَّ وجل ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَنَا﴾.

١٨٨. تفيد: بشرية الرُّسل فلا يجوز الغلو فيهم، وإعطائهم خصائص الألوهية.

١٨٩. تفيد: أنَّ المماثَلَةَ في البَشَرِيَّةِ لا تَقْتَضِي المماثَلَةَ في زائِدٍ عَلَيْها فالبَشَرُ كُلُّهم عِبادُ اللَّهِ، واللَّهُ يَمُنُّ عَلى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ بِنِعَمٍ لَمْ يُعْطِها غَيْرَهم"(١).

١٩٠. المشاركة في الجنس لا تمنع التفاضل، فالبشر كلهم عباد الله، ولكنه - سبحانه - يمن على بعضهم بنعم لم يعطها لسواهم.

١٩١. تفيد: الترغيب في توجيه الدُّعاة للعناية بتربية العقيدة الإيمانية أولاً وتتمثل هنا في التوصل لتوحيد العبادة من خلال توحيد الربوبية، وحشد الحجج العقلية، وتجيش الفطر السوية، وربط القلوب بالله بتذكير الخلق بعظيم آلائه وجليل صفاته.

١٩٢. فيها: درس لمن أراد ان يتعلم فنون المجادلَّة بالتي هي أحسن من وجوه:

١. إثبات ما للخصم من الحق أولاً؛ ليسلم ويستمع لما تقول ﴿إِنۡ نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾

٢. الإتيان بوجه المخالفة في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾.

٣. عدم تسفيه المخالف؛ لأنَّ ذلك يصده عن الحق.

٤. فيها: بيان طول نفس الرَّسل، ومن يقتدي بهم من الدعاة إلى الله مع قومهم، والرد على حججهم والسعي في دحضها.

٥. إشعار الخصم بالهزيمة النفسية؛ وذلك ببيان وجه القوة ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾معية الله.

١٩٣. تفيد: أهمية معرفة مميزات النفس، وجوانب الاختصاص، والفضل، وهو الذي يؤدي إلى شكر النعمة، والقيام بحقها.

١٩٤. فيها: إثبات المشيئة الكاملة لله تعالى يعطي كما يشاء، ويمنع من يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

١٩٥. فيها: التَّوكل على الله أولاً، وأخيراً في توجيه القلوب إلى معرفة الحق.

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٠١.

١٩٦. فيها: أنَّ من فنون المحاورة، والمناظرة في مجاراة الخصم للتبكيت، والإلزام، والافحام، فإن الأفضل فيمن ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر هو لا يخالف فيه أن يعيد كلامه على وجهه، ثم يتبعه الرَّد عليه، حتى تكون الدعوى، والرد عليها قريبة للذهب فتوجب التَّفكر، والإذعان.

١٩٧. صحة الترتيب الأكاديمي في البحوث، والرسائل العلمية، وما يسمى في مباحث الأصول" تحرير محل النزاع" فالرسل عليهم السَّلام تقر بما اعترض به المعاندون، في أنهم بشر، ولم يرد عنهم تصريحاً ولا تلميحاً، ما يدلَّ على خلاف ذلك، فلا يلزم من تشريفهم بالرسالة أن الرسول ليس بشراً أصلاً، أو أنه بشر لكنه لا يماثل البشر في جنس صفاتهم، ولكن تحرير محل النزاع هو التصديق، والإيمان بما جاء به الرَّسل عليهم السَّلام.

١٩٨. فيها: عدم الانفعال، والتهور من ادعاء الخصم ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

١٩٩. تفيد: أهمية التَّوكل على الله تعالى في الثبات على الدين، والتبصر في أمور الحق، ومواجهة أعداء الدين.

٢٠٠. فيها: وجوب التَّوكل على الله عزَّ وجل، وحاجة المؤمنين جميعاً إليه.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ إبراهيم[١٢]

٢٠١. فيها: أنَّ اللائق على من رزقه الله عليه الهداية إلى طريق ألا يصرف شيئاً من العبادة إلى غيره، ففيها أن توحيد الرُّبوبيَّة يستلزم توحيد الألوهية.

٢٠٢. أهل الهداية، والتوفيق؛ أكثر النَّاس ثقة بمولاهم وتوكلا عليه.

٢٠٣. فيها أنَّ التحدث بنعم الله من شيم الأنبياء.

٢٠٤. وفيها: أنَّ الأنبياء قدوة في كل شيء فقد بدأوا بأنفسهم، ومن ثم اتباعهم.

٢٠٥. فيها: أنَّ الداعية يبدأ بنفسه في دعوته، ثم يدعو غيره، فإن الرُّسل عليهم السَّلام لما قالوا ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أمروا أتباعهم بذلك وقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾

٢٠٦. تفي: أنَّ الصَّبر على الأذى من صفات الأنبياء.

٢٠٧. فيها: أنَّ إيذاء الأنبياء، والمؤمنين من سنن الكافرين، فليوطن المؤمن نفسه على الصَّبر.

٢٠٨. فيها: أنَّ الرُّسل الكرام كما أنهم نالوا أعلى مقامات الشُّكر، فإنهم نالوا أعلى مقامات الصَّبر على الأذى.

٢٠٩. وفيها: العلاقة بين الإيمان، والتَّوكل علاقة طردية، فكلما قوي الإيمان قوي التَّوكل والعكس.

٢١٠. وفيها: دلَّيل على أن الهداية والتَّوكل متلازمان

٢١١. وفيها: وجوب التَّوكل على الله وحده عزَّ وجل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه"[(١)].

٢١٢. تفيد: أنَّ التَّوكل؛ باعث الأمان، والاطمئنان في نفوس أهل الإيمان.

٢١٣. فيها: أنَّه: يبرز كثيرا للمتدبر خلقي الاستعانة، والتَّوكل في قصص الأنبياء لأنَّ دعوة الرُّسل هي التَّوحيد بركنيه المفهومة من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ الفاتحة:[٥].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣﴾ إبراهيم[١٣].

٢١٤. فيها: مناسبة لما قبلها؛ قال السعدي: لما ذكر دعوة الرُّسل لقومهم، ودوامهم على ذلك وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ﴾ متوعدين لهم ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرَّد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنَّه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى بل توعدوهم بالإخراج من

(١) تفسير السعدي ص ٤٢٢.

ديارهم، ونسبوها إلى أنفسهم، وزعموا أن الرَّسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظُّلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض، وما عليها يستعينون بها على عبادته.

٢١٥. تفيد: أنَّ الإخراج من الأرض، ومفارقة الأوطان من الفتن، والمحن، والبلايا، والرزايا.

٢١٦. تفيد: أنَّ إخراج الرَّسل من ديارهم، وأوطانهم سنة ماضية.

٢١٧. تفيد: قوة رابطة الانتماء للوطن حتى جعلوا يساومون الرَّسل بذلك في مقابل عقيدتهم.

٢١٨. فيها: ديدن أهل الباطل العناد، وعدم قبول الحق.

٢١٩. ومنها: الكلام، والتهديد المجرد من الفعل ديدن أهل النفاق، والكفر.

٢٢٠. وفيها: أنَّهم نسبوا الأرض لهم، وهذا من الظُّلم فالأرض لله يورثها من يشاء.

٢٢١. تفيد: ضلال الكفَّار، وتمسكهم بملتهم الباطلة.

٢٢٢. تفيد: أنَّ سلب ممتلكات الإنسان الخاصة من أعظم، وأبرز صور الجبروت، والطغيان، والظلم؛ لقولهم: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾، حيث نسبوا الأرض إلى أنفسهم، ومعلوم أن الأرض ليست خاصة لهم بل يشترك معهم الرَّسل، وأتباعهم.

٢٢٣. ومنها: سنة الله نصر الحق بك، أو بغيرك طالت، أم قصرت.

٢٢٤. ومنها: تسلية لكل داعية لله مهما تعثر الطريق بك فثم نصر.

٢٢٥. تفيد: أنَّ إخراج الرَّسل من قبل أقوامهم مؤذن بنزول العذاب، والخراب والهلاك ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَا وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا ٧٧﴾ الإسراء:[٧٦-٧٧]

٢٢٦. تفيد: أنَّ محاولة زعزعة أمن، واستقرار الأفراد، والجماعات من دأب، وصنيع أهل الكفر، وأرباب الفساد، والإفساد في الأرض.

٢٢٧. تفيد: أنَّ بعض العبارات الحادة، والمواقف الظالمة، والتصـــريحات العدائية الآثمة تحتاج إلى حزم، وعزم، وسـرعة رد، وقوة إرادة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾

٢٢٨. تفيد: أنَّ تضـــييق الخناق على عباد الله تعالى من قبل أعدائهم، وعدم إتاحة خيارات أخرى مناســبة لهم من الأســباب التي يعجِّل الله بها الفرج، وينزِّل بها النَّصــر على عباده؛ لقوله تـعـالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ إبراهيم[١٤]

٢٢٩. فيها: مناســبة لما قبلها، من جهة أن التخلية تكون قبل التحلية، فإن تخلية الأرض من الظالمين، في قوله: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثم قال ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾.

٢٣٠. فيها: أنَّ الرُّسل غالبون منصورون، وأن النَّصر كما أنه محقق لهم في الآخرة، فهو أيضاً في الدنيا.

٢٣١. تفيد: أنَّ الوعيد يجب أن يخيف المؤمن، ويزجره بخلاف الكفَّار الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾ الإسراء:[٦٠] .

٢٣٢. فيها: أنَّ ســـنة الله ماضـــية إلى يوم القيامة، فإن أي أمة تخاف مقام الله عزَّ وجل، وتخاف وعيده عزَّ وجل، فلا بد أن تمكَّن في النهاية، ولا بد أن يُهلك الظالمون.

٢٣٣. تفيد: أنَّ الخوف من مقام الله تعالى، وتذكر الوعيد، دلَّيل على صـــلاح القلب وبعده عن الغفلة، وهي الخصلة من الخصال التي أثنى الله بها على بعض أنبيائه عليهم السَّلام وكما في قـولـه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾ ص:[٤٥-٤٦].

٢٣٤. فيها: أنَّ إضافة الخوف لمقام الله يبث الخوف في نفوس من تجاوزها، ويحرِّك الإحساس بمهابة الله وعظمة حرماته.

٢٣٥. أن الخوف من الله من أعظم أسباب العاقبة الحسنة؛ بدلَّالة التكرار، وذلك في تكرار لفظة: ﴿خَافَ﴾مرتين.

٢٣٦. فيها: الخائفون من الله هم أهل التمكين في الأرض.

٢٣٧. تفيد: أنَّ مقام الخوف من الله هو من مقامات الأنَّبياء عليهم السَّلام.

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ إبراهيم[١٥]

٢٣٨. تفيد: أنَّ الله تعالى ينصر عباده، ويهلك اعداءهم، ولو بعد حين.

٢٣٩. في اقتران التجبُّر، والعناد قد يكون فيه إشارة إلى أن الكبر مانع من الانقياد للحق، والله أعلم.

٢٤٠. فيها: أنَّ التجبر، والعناد سبب للخيبة والخسران.

٢٤١. فيها: مع ما بعدها أن التجبر، ومعاندة الحق سبب في دخول النَّار.

٢٤٢. تشير إلى: أن الله يحصي العباد، وأعمالهم، وأنه لا يخفى عليه منهم شيء؛ لقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾لا يفلت منهم أحد.

قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ إبراهيم[١٦-١٧]

٢٤٣. فيها:، وبضميمة ما قبلها: أن جهنم، وكلت بكل جبار عنيد؛ لأنَّه قال قبلها: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾وهنا قال: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾؛ يعني: من وراء هذا الجبار العنيد.

٢٤٤. فيها: أنَّ "كاد" إثباتها إثبات للمقاربة، ونفيها نفي للمقاربة لدلَّالة هذه الآية، فهي على بابها ومعناها المقاربة فنفيها نفي وإثباتها إثبات، وقيل إن نفيها إثبات وإثباتها نفي، ومن تتبعها في التنزيل يخرج منها برسالة لطيفة، وهي بكر على حد الاطلاع.

٢٤٥. فيها: أهمية الماء، ومكانته في جميع الظروف، وسعي الإنسان للحصول عليه.

٢٤٦. فيها: أنَّ جهنم، فيها: أصناف من العذاب.

٢٤٧. تفيد العطش الشديد لأهل النار، ولهذا قال: يتجرعه أي يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه.

٢٤٨. تفيد شدة قذارة ومرارة شراب أهل النار، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾، لقذارته ومرارته ، والتقزز والتكره باديان نكاد نلمحها من خلال الكلمات.

٢٤٩. فيها: الذل، والهوان لأعداء الله يوم القيامة.

٢٥٠. الأفعال المضارعة تفيد: استمرار عذابهم، وشدته حتى إنهم يتمنون الموت ولا يجدونه.

٢٥١. الموت أمنية أهل النَّار، للخلاص من العذاب الشـديد قال تعالى : ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ الزخرف:[٧٧] .

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ إبراهيم[١٨]

٢٥٢. في مناسـبة الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر أنواع عذابهم في الآية المتقدمة بين في هذه الآية أن أعمالهم بأسـرها تصـير ضـائعة باطلة لا ينتفعون بشـيء منها. وعند هذا يظهر كمال خسـرانهم لأنهم لا يجدون في القيامة إلا العقاب الشـديد وكل ما عملوه في الدنيا وجدوه ضـائعا باطلا، وذلك هو الخسران الشديد [١].

٢٥٣. فيها أن الآية جاءت معقبة على سـابقاتها، وأن المقصـود منها هو إيذان بحبوط أي عمل مهما كان فيه خير ومكرمة، أو أريد به ذلك ما دام صاحبه كافرا.

٢٥٤. ينبغي استعمال الأساليب التي تعين على الفهم، ومن ذلك ضرب الأمثال التي تصور المعقول في صورة المحسوس.

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي (٢٣١/٩).

٢٥٥. من لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المجتمع؛ لأنَّ الرَّماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا، وأشيعها بينهم، وهو قرى الضَّيف، حتى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم"[1].

٢٥٦. فيها: رد على المرجئة؛ لأنَّ الله عزَّ وجل نسب الأعمال إليهم ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾وقال أيضاً: ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾.

٢٥٧. فيها أن الأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإيمان، ولا تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث، وتصل الباعث بالله.. مفككة كالهباء والرماد، لا قوام لها ولا نظام. فليس المعول عليه هو العمل، ولكن باعث العمل. فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية.

٢٥٨. تفيد: أهمية تنويع الأساليب في بيان الحق، والتنفير عن الباطل.

٢٥٩. فيها: بيان لأعمال الكفَّار في ضياعها، وذهابها إلى غير عودة بالرماد الهش الذي تذروه الرياح، وتذهب به بددا إلى حيث لا يتجمع أبداً.

٢٦٠. تفيد: أنَّه لا قيمة، ولا وزن، لأي عمل، وإن عظم مع الكفر.

٢٦١. فيها: التشبيه بتعذر وصول الكافر إلى ثواب شيء من أعماله كما يتعذر جمع الرماد الذي اشتدت به الرياح في يوم عاصف، وهذا أبلغ في الزجر عن الكفر لأنَّه جعله محبطاً لجميع أعماله.

٢٦٢. فيها: فضل التَّوحيد، إذ هو الذي يثبت الأعمال، فلا قيمة لها، مهما بلغت، مع الشرك؛ ولذلك كان أول الواجبات، قال الشيخ حافظ الحكمي:

أول واجب على العبيد معرفة الإله بالتوحيد

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢١٣.

وبه يتبين ضلال تلك الجماعات التي ترى أنَّ التَّوحيد يفرِّق الأمة، فهم يتكلمون إن تكلموا في العقيدة على توحيد الرُّبوبيَّة، لتلك المزاعم الفاسدة، والأرباح الكاسدة.

٢٦٣. في هذه الآية: أعظم زاجر للمؤمن عن المكفرات التي تبطل إيمانه فيحبط بذلك عمله.

٢٦٤. في الآية: من ضروب المجاز التوسع بإقامة الظرف المتصرف مقام فاعل الحدث الواقع فيه مقام المفعول الموقع به الحدث لقوله تعالى: ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾.

٢٦٥. تفيد أن الأعمال التي لغير الله، وعلى غير مراده: طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارا وعذابا؛ بدلالة تشبيهها بالرماد وهو سر بديع. وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد، في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ إبراهيم[٢٠]

٢٦٦. فيها: أنَّ هذه الرؤية هي رؤية بالتدبر، والتفكر، وهي رؤية عقلية، أي ألم تر أنه فاعل ذلك لا الرؤية التي هي بالعين الباصرة.

٢٦٧. قدِّم بين يدي تهديدك، ودعواك ما يثبت قدرتك، وصحة كلامك.

٢٦٨. فيها: بيان عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه.

٢٦٩. فيها: أنَّ السَّماوات، والأرض لم تخلقا عبثاً وإنَّما خلقتا لغاية عظيمة.

٢٧٠. تفيد: قصر المناهج الدراسية المتعلقة بالعلوم الجغرافية، والفلكية والجيولوجية ..إلخ؛ عندما تتناول المادة بصورة علمية بحتة، فالله ما خلقها لهذا، وفي تناولها بهذه الصورة تعطيل للهدف منها.

٢٧١. فيها: تهديد، ووعيد للمعاندين، والمعرضين عن طريق الحق.

٢٧٢. فيها: البلاغة الكاملة، وبيانها أنه تعالى قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج إليه، فإن المحتاج لا يقول فيه إن يشأ فلان هدم داره، وأعدم عقاره، وإنَّما يقول لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها، أو لولا الافتقار إلى العقار لتركتها، ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾يعني إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال، وعظمة فلو أذهبه لزال ملكه، وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقاً جديداً أحسن من هذا، وأجمل، وأتم وأكمل"[1].

٢٧٣. البلاغة القرآنية في كل تفصيل من تفاصيل الآية، هذا أسلوب شرط: فعلاً وجواباً: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾جاء الفعل بالمضارع المفيد للاستمرار، فذهابكم رهن مشيئته، وبقاؤكم وفق إرادته.

٢٧٤. تفيد: عظم حلم الله تعالى على خلقه، فلو شاء لأهلكهم بسبب ذنوبهم، ولأبدل غيرهم ولكنه حليم يمهل.

٢٧٥. تفيد: أسلوبا بديعا وإرشاداً للداعية إلى طريق الاستدلالِ فإن من قدَر على خلق مثلِ هذه الأجرامِ العظيمةِ كان على تبديل خلق آخرَ بهم أقدر ولذلك قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾

٢٧٦. فيها: أنَّ من سبل إثبات قدرة الله على البعث، والإحياء الاستدلَّال بخلق السَّماوات والأرض.

٢٧٧. في الآيتين من أوجه البلاغة-الالتفات- وجاء هنا نوع منه وهو انصراف المتكلم من التكلم إلى الإخبار في قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، والنوع الثَّاني: هو انصراف المتكلم عن الخطاب إلى الإخبار كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، ومثاله من الشعر قول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

(١)تفسير الرازي ١٣/ ١٦٥.

والنوع الثالث: هو انصراف المتكلم من الإخبار إلى التكلم كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ فاطر:[٩]، وقد جمع امرؤ القيس الالتفاتات الثلاثة في ثلاثة أبيات متتاليات، وهي قوله:

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني وخبرته عن أبي الأسود

فخاطب في البيت الأوَّل، وانصرف عن الخطاب إلى الإخبار في البيت الثَّاني، وانصرف عن الإخبار إلى التكلم في البيت الثالث على الترتيب.

٢٧٨. فيها: أنَّ باء الجر تدخل على خبر [ما] كما في هذه الآية، وعلى خبر [ليس] كذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾فتجرهما، وهو كثير وهذه الباء زائدة لتأكيد النفي وتزاد أيضاً الباء للتوكيد في خبر [لا] نحو قوله:

فكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة بمغن فتيلا عن سواد بن قارب.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ إبراهيم[٢١]

٢٧٩. مناسبة الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر أصناف عذاب هؤلاء الكفار ثم ذكر عقيبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة، ذكر في هذه الآية كيفية خجلهم عند تمسك أتباعهم وكيفية افتضاحهم عندهم. وهذا إشارة إلى العذاب الروحاني الحاصل بسبب الفضيحة والخجل(١).

٢٨٠. فيها: أنَّ المضارع متحقق الوقوع يعبر عنه بصيغة الماضي كما في صدر هذه الآية﴿وَبَرَزُواْ﴾والمراد: يبرزون يوم القيامة.

(١) تفسير الرازي ١٣/ ١٦٩.

٢٨١. فيها: عظمة ذلك اليوم، وكثرة الجمع فيه ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ المرسلات:[٣٨]

٢٨٢. تفيد: أنَّ الحقائق لا تظهر في صورتها البيِّنة لبعض النَّاس إلا في الدار الآخرة.

٢٨٣. تفيد: عظمة الله تعالى الذي يبرز إليه جميع الخلق في خضوع تام، ويحاسبهم جميعاً، ويعطي كل واحد ما يستحقه من الجزاء.

٢٨٤. تفيد: أنَّ الكل يكون بارزاً ظاهراً للحساب يوم القيامة فلا أحد يستطيع الخفاء، أو التخلف.

٢٨٥. فيها: تنبيه النَّاس لتدارك شأنهم قبل يوم القيامة.

٢٨٦. تفيد: أنَّ الكفر، والضلال دائماً يكون معه الاستكبار، إمَّا عن الحق، أو الخالق، أو على الخلق، وقد تجتمع كل تلك الصفات؛ ولذا حذف متعلق ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾

٢٨٧. فيها: خطورة الاتباع بلا بصيرة.

٢٨٨. تفيد: أنَّ اتباع الباطل ضعفاً، وانقياداً للمستكبرين لا يعذر صاحبه.

٢٨٩. فيها: خطر التقليد في الباطل.

٢٩٠. فيها: أنَّه ينبغي للإنسان أن يُعمل عقله الذي كرمه الله به، ولا يكون تابعا لغيره يقاد بخطامه وزمامه.

٢٩١. فيها: أنَّ التقليد الأعمى ليس بعذر، ولا هو بمانع من موانع التكفير.

٢٩٢. تفيد: أنَّ اتباع غير المهتدي ضلال مبين، وسبب حسرة الكافرين، ومن هنا يظهر فضل اتباع العلماء، والصالحين، وخطورة اتباع الجهلاء، والمجرمين.

٢٩٣. تفيد: أنَّه يجب تحري القدوة الحسنة الطيِّبة التي تدلَّ على الخير، وتكون سببا للنجاة من عذاب الله يوم القيامة.

٢٩٤. تفيد: أنَّ هنالك فئات من النَّاس ضعفاء لا يفكرون، وإنَّما يسيرون في ركب السادة، والكبراء من غير وعي لما هم فيه من ضعف في العلم، أو العقل، أو القدرة في المال، أو السلطان.

٢٩٥. فيها: التحذير من سوء المصير.

٢٩٦. تفيد: أنَّ هداية التوفيق لا تكون إلا من الله، ومن هداه الله تعالى للحق قد يكون سببا لهداية غيره من النَّاس ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾.

٢٩٧. فيها: أنَّ الهداية حق الله، لو أعطاها فهي محض فضل منه، وهو إعطاء من حق هو له سبحانه، وإن منعها فهو عدلٌ منه تعالى، لا ظلم فيه، بوجه من الوجوه لأنَّه الظُّلم أن يمنعك شيئاً هو لك، وليس الأمر كذلك.

٢٩٨. تُظهر الآية أن مستمد مذهب الجبر، في قولهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾أنها مقولة قديمة، أخذها اللاحق من السابق.

٢٩٩. فيها: من أوجه اللغة "أم" وهي من حروف العطف المتصلة، وهي التي تقع بعد همزة التسوية نحو سواء على أقمت، أم قعدت، ومنه ما جاء في هذه الآية، وهي التي تقع بعد همزة مغنية عن "أي" قال ابن مالك في الخلاصة:

وأم بها أعطف إثر همز التسوية أو همزة عن لفظ أي مغنية.

٣٠٠. تفيد: أنَّ الصَّبر على البلاء ينفع في الدنيا، وليس في الآخرة

٣٠١. فيها: شدة العذاب المعنوي قبل العذاب الحسي على هؤلاء؛ لأنَّهم لو صبروا على العذاب، أو جزعوا فإن النتيجة واحدة، وهي أن العذاب مستمر، فإن صبرهم لن يفيدهم شيئاً.

٣٠٢. فيها: خلود الكفَّار، والمشركين في النَّار.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا

بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾ إبراهيم[٢٢]

٣٠٣. تفيد: ما يخطب به الشيطان إِبْلِيسُ -لَعَنَهُ اللَّهُ- أَتْبَاعَهُ، بَعْدَ مَا قَضَى اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّاتِ، وَأَسْكَنَ الْكَافِرِينَ الدَّرَكَاتِ، فَقَامَ فِيهِمْ إِبْلِيسُ -لَعَنَهُ اللَّهُ -حِينَئِذٍ خَطِيبًا لِيَزِيدَهُمْ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ، وغبنا إِلَى غبْنهم، وَحَسْرَةً إِلَى حَسْرَتِهِمْ.

٣٠٤. تفيد: أنَّ وعد الله حق، وأنه لا يخلف الميعاد.

٣٠٥. فيها: بطلان وعود الشيطان ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ الإسراء:[٦٤] .

٣٠٦. فيها: تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا في المحشر.

٣٠٧. فيها: أنَّ الشيطان ينفي أن يكون له عليهم سلطان، وقد جاء في الأدلَّة ما يفيد ذلك، كما في سُورة النحل، وجاء إثبات ذلك للذين يتولونه، والجواب: هو أن السُّلطان الذي أثبته له عليهم غير السُّلطان الذي نفاه؛ وذلك من وجهين:

الأوَّل: أن السلطان المثبت له هو سلطان إضلاله لهم بتزيينه، والسلطان المنفي هو سلطان الحجة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة، ولا برهان، وإطلاق السلطان على البرهان كثير في القرآن.

الثَّاني: أنَّ الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة، ولكنهم هم الذين سلّطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في حزبه فلم يتسلط عليهم بقوة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ النساء:[٧٦] وإنَّما تسلّط عليهم بإرادتهم، واختيارهم، ذكر هذا الجواب بوجهيه العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى.

٣٠٨. هذه الآية تدل على أن الشيطان الأصلي هو النفس، وذلك لأن الشيطان بين أنه ما أتى إلا بالوسوسة، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير البتة، فدل هذا على أن الشيطان الأصلي هو النفس.

٣٠٩. تفيد: شدة عداوة الشيطان على اتباعه، فقد كذب عليهم، وغرهم ثم غدر بهم، وبعد ذلك يوقع عليهم الحسرة، والندامة، ولا يقدم لهم شيئاً، ولا يقبل منهم مجرد اللوم.

٣١٠. فيها إيقاظٌ للسامعين حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبّروا العواقب. بدلالة تتمةُ كلامِه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢﴾ أو ابتداء كلامٍ من جهة الله عز وجل وفي حكاية أمثاله لطفٌ للسامعين(١) .

٣١١. تفيد عظيم لطف الله بعباده، أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وحزبه أنه يتبرأ منهم هذه البراءة(٢).

قال تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ إبراهيم[٢٣]

٣١٢. فيها: أنَّه إذا بني للمفعول باب "أعطى" و "كسا" من الفعل المتعدي إلى مفعولين الثَّاني منهما غير الأوَّل، فالأشهر فيه أن يُجعل الأوَّل -الذي هو الفاعل في المعنى- منهما نائبا عن الفاعل، ويترك الثَّاني على نصبه، كما في الآية الكريمة، ويجوز عكسه إن أمن اللبس، سواء تقدم، أو تأخر قال ابن مالك:

وباتفاق قد ينوب الثان من.. باب "كسا" فيما التباسه أُمن

مع أنه قوله باتفاق، لا يخلو من نظر، كما ذكر ذلك الشرَّاح، فإن بعض النحاة قد منعه، إما مطلقاً، أو في النكرة دون المعرفة.

---

(١) تفسير أبو السعود(٥/٤٢).

(٢) تفسير السعدي(٤٢٤).

٣١٣. فيها: المقابلة بين وضع أهل النَّار من العذاب بشتى أنواعه من الآلام التوبيخ من اللوم من الأصحاب، والاعوان من شياطين الإنس والجن وبين وضع أهل الإيمان، والعمل الصالح من النعيم في الجنات.

٣١٤. فضيلة الإيمان، وأنه سبب في دخول الجنَّة.

٣١٥. تنكير ﴿وَأُدۡخِلَ﴾، وتنوينها يدلَّ على التفخيم، والتعظيم، والكثرة.

٣١٦. فيها: مكانة العمل الصالح، ومنزلته العالية، وأنه قرين الإيمان في كتاب الله تعالى.

٣١٧. فيها: أنَّ دخول الجنَّة بفضل الله، ورحمته وليس إنجاز شخصي، أو جهد بشر.

٣١٨. فيها: منَّة الله تعالى على عباده المؤمنين بإدخالهم الجنَّة، والله ذو الفضل العظيم.

٣١٩. فيها: أهمية وفضل التحية.

٣٢٠. فيها: أنَّ أفضل التحية السَّلام.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ إبراهيم[٢٤]

٣٢١. (ألم تر) فيها: اسلوب الاستفهام، يشد انتباه المخاطب.

٣٢٢. فيها: ضرب المثل من أساليب القرآن البديعة.

٣٢٣. فيها: أنَّ ضرب المثل فيه زيادة إيضاح.

٣٢٤. فيها: التشبيه البليغ بالشجرة الطيِّبة المثمرة التي يستفاد منه.

٣٢٥. فيها: جواز ضرب المثل بما هو دونه في المكانة؛ لتقريبه للإفهام

٣٢٦. فيها: كلمة التَّوحيد هي الركيزة الأساسية للدين.

٣٢٧. منها: كل كلمة خرجت بصدق ستثمر ولو بعد حين.

٣٢٨. منها: عدم احتقار من المعروف شيئاً، ولو كانت كلمة.

٣٢٩. تفيد: أهمية، ومكانة الكلمة الطيّبة التي لا تكون ثمارها إلا طيّبة، كما أن الشجر الطيب دائماً ثماره طيب.

٣٣٠. تفيد أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر ، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه به.

٣٣١. تفيد أن الكلمة الطيب تثمر العمل الصالح، فكل عمل مرضي هو ثمرة هذه الكلمة.

٣٣٢. فيها أن الغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك، فكذا الإيمان والعمل الصالح يحتاج إلى التجديد والمعاهدة.

٣٣٣. فيها الرحمة والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب، والسعي في إيصال الخير إلى الناس ، ودفع الشر عنهم، ومقابلة الإساءة بالإحسان . ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾.

٣٣٤. تفيد التأمل في دلائل معرفة الله تعالى، ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

قال تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ إبراهيم[٢٥].

٣٣٥. تفيد بضميمه ما قبلها: ارتباط صلاح الأصل بصلاح الفرع.

٣٣٦. فيها: أنَّ مما يكتسبه المضاف من المضاف إليه (الظرفية)؛ بشرط أن يكون المضاف دالاً على الكلية أو الجزئية، كلفظ "كل" و"بعض"، والمضاف إليه ظرفاً، كما في هذه الجملة من الآية الكريمة: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾.

٣٣٧. معرفة الله تعالى والاستغراق في محبته وفي خدمته وطاعته، تشبه هذه الشجرة في صفاتها الأربع.

٣٣٨. فيها أن صاحب الإيمان والعمل الصالح، لا تؤثر عليه أحوال الزمان وتقلباته في إيمانه ويقينه بالله، بدلالة التمثيل بالشجرة التي تؤتي أكلها كل حين.

٣٣٩. فيها: الاستعانة بالله، وسؤاله التوفيق للعمل الصالح.

٣٤٠. تفيد: أنَّ الفوز، والفلاح مداره على الخيرية، والاستدامة ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ .

٣٤١. فيها: إشارة إلى الإكثار من الصالحات مع تنوعها؛ لقوله: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾.

٣٤٢. تفيد مشيئة الله وحكمته البالغة وقدرته المطلقة لقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾.

٣٤٣. تهدي إلى: حسن الظن بالله، في تلمس كل ثمرة، وعاقبة لكل كلمة طيّبة، وعمل صالح، فإنما هو بإذن الله.

٣٤٤. تفيد: أنَّ تعلُّم الأمثال، وحفظها من الوسائل المهمة في الدَّعوة، فينبغي للداعية تعلُّم الأمثال فليست من ترف العلم، بل هي من أقوى الوسائل في الدَّعوة والرد على المنحرفين.

٣٤٥. فيها: وجوب التذكُّر، والاعتبار بدلَّالات الأمثال.

٣٤٦. تهدي إلى: علاقة ضرب الأمثال بالتذكر، لعل من نسي أن يراجع ما نسي، ولعل من بعد أن يتعظ ويعتبر.

٣٤٧. فيها أن التذكر المرجو بضرب المثل هو التفهم والتصور للمعاني المدركة بالعقل، فمتى أبرزت بالمحسوسات لم ينازع فيها الحس والخيال والوهم، وانطبق المعقول على المحسوس، فحصل الفهم والوصول إلى المطلوب .

قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ إبراهيم[٢٦]

٣٤٨. فيها: من المناسبة أنَّه لما ذكر في الأولى العلو في السماء، ولم تذكر الأرض لعلو كلمة التَّوحيد خاصة، والكلمة الطيّبة عموماً بينما ذكرت في الثانية الأرض لدونها، وسفلها وحقارتها، ذكر في الكلمة الطيّبة رسوخ الشجرة لحالها، ودون تدخُّل من أحدٍ بينما بُني الفعل للمجهول في الثانية ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾الدال على أنه تم اقتلاعها بفعل فاعل مما يدلَّ على أن الإصلاح، وإزالة

المنكر يحتاج إلى أعوان وسلطان، وبيان أن العمل يسير لمن وفقه الله، وينمو، ويزيد وقد لا يحتاج إلى جهد كأعمال القلوب، والنيات، وأنَّ الباطل لابد فيه من سعي الساعي، وبذل الجهد.

٣٤٩. فيها أن الشـــجرة الخبيثة هي الجهل بالله، فإنه أول الآفات وعنوان المخالفات ورأس الشقاوات ثم إنه تعالى شبهها بشجرة موصوفة بصفات ثلاثة: أنها خبيثة، وأنها اجتثت من فوق الأرض، وأنها مالها من قرار.

٣٥٠. تفيد أن الكلم الخبيث يجلب ضراراً.

٣٥١. فيها: من الإعجاز البلاغي: التنفير من الشرك بتصويره بهذه الصورة الجامعة لصنوف المساوئ.

٣٥٢. في تغيير الأسـلوب حيث لم يقل "وضـرب الله مثلاً كلمة خبيثة" إيذاناً بأن ذلك غير مقصود بالضرب، والبيان"[1].

٣٥٣. تفيد: بلاغة الأمثال القرآنية، وقوة تعبيرها، وسعة معانيها.

٣٥٤. يسـتفاد من المقابلة بين قوله: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾وقوله: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾؛ أن الباطل لا أصل له ثابت، ولا فرع ممتد، فهو متضعضع مخلخل لا رسوخ له، فيسهل اجتثاثه، ولا يبقى له أثر، ففيها حث، وتحضيض للدعاة إلى الله

٣٥٥. الكلمات كالأشـجار، ومن الأشـجار ما هو مؤذي، ومن الأشـجار ما نفعه متعدي، فكم من كلمة قاسية جارحة اجتثت محبة شخص من قلوب أصحابه.

٣٥٦. فيها: ضرب المثل من الأساليب التي تبين المراد.

٣٥٧. تفيد: قبح كلمة الكفر، والشرك.

٣٥٨. تفيد: سرعة زوال الباطل، واضمحلاله.

---

(١) فتح البيان للقنوجي ٧/ ١١١.

٣٥٩. وفيها: أنَّ الباطل مهما زان شكله، وأغرى مظهره، فذاك وقتي، لإثبات له؛ سريعاً ما يزول ولا يبقى له أثر.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[إبراهيم٢٧]

٣٦٠. فيها: مع ما قبلها أثر الكلمة الطيّبة [لا إله إلا الله] في الثبات لأنها القول الثابت.

٣٦١. تفيد: أنَّ تحقيق التَّوحيد شرط لنيل التثبيت من الله تعالى.

٣٦٢. فيها: التثبيت، والإضلال من فعله سبحانه، فهو يفعل ما يشاء سبحانه، وفعله اختياري، وفيها رد على القدرية، والمعتزلة.

٣٦٣. تفيد: أنَّ الثبات، والتثبيت من الله عزَّ وجل؛ فعلى المؤمن أن يكثر من الدُّعاء بالثبات، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"

٣٦٤. هذا الخبر من الله هو بمعنى الأمر، وحثٌّ للمؤمنين على تعاطي أسباب الثبات، مع كونهم على هداية، فهو بمعنى التثبيت، وطلب مزيد الهداية، لأنَّ الألطاف والهدايات من الله لا تتناهى.

٣٦٥. تفيد: أنَّ من أجلّ وسائل الثبات على دين الله تحقيق الإيمان بالله تعالى.

٣٦٦. تفيد: أنَّ الاستقامة، والثبات لا قدرة للعبد عليه بنفسه، ولذلك يحتاج أن يسأل ربه الثبات، كم من عامل يعمل الخير، إذا بقي بينه، وبين الجنَّة ذراع، وشارف مركبه ساحل النجاة، ضربه موج الهوى فغرق.

٣٦٧. فيها: أنَّه يجب الحذر من أن يظن الظان أن الثبات على الاستقامة أحد إنجازاته، لإضافته إلى الله﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾، وقد قال الله لأفضل خلقه ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾.

٣٦٨. فيها: أنَّ دوام الثبات، من الله وحده؛ لقوله: ﴿يُثَبِّتُ﴾، مضارع.

٣٦٩. يفيد: قوله ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾أن ثبات القلوب على الإيمان بيد الله تعالى فمن شاء أقامه، ومن شاء أزاغه؛ فلا يغتر أحد بإيمانه، واستقامته.

٣٧٠. يفيد: قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾كمال فضـــل الله تعالى على المؤمنين؛ كما يفيد: قوله ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾كمال عدلّه معهم.

٣٧١. ويفيد قوله ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾أهمية هذا القول، والحث على معرفته، والعمل بمقتضاه؛ لأنَّه يقوم عليه كل ثبات في الحياة، وبعد الممات؛ لا يقوم غيره مقامه وهو قول كلمة التَّوحيد: [لا إله إلا الله]؛ والعمل بمقتضاه بالمتابعة لنبيه صلى الله عليه وسلم : محمد رسول الله دلَّيله ما جاء في الصحيحين عن البراء بن عازب عنه عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾قالَ: نزلَت في عذابِ القبرِ، يُقالُ لَهُ: مَن ربُّكَ؟ فيقولُ: ربِّيَ اللَّهُ، ونبيِّي محمَّدٌ، فذلِكَ قَولُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٣٧٢. تفيد: إثبات المشيئة القدرية الشرعية ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾والمشيئة الكونية القدرية ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

٣٧٣. فيها: أنَّ الظُّلم، يرد ويأتي بمعنى الكفر؛ لقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريد: الذين كفروا؛ بقرينة: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٣٧٤. يفيد: أن العباد يدورون بين حالين: حال مؤمن ثابت موفق وبين ظالم جاهل مخذول.

٣٧٥. ويفيد قوله ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾إثبات المشيئة، وأفعالها للرب جلّ في علاه.

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾إبراهيم[٢٨]

٣٧٦. فيها: أسلوب من أساليب الخطابة الفعال في مطلع الآية قوله تعالى ﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾.

٣٧٧. تفيد: أنَّ سنن الله تعالى في الخلق ماضية لا تتبدلَّ ﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ .

٣٧٨. تفيد: ادخال مفهوم (قراءة النعمة) إلى منظوماتنا التربوية، في ظل غياب شبه تام لهذا المفهوم، مع المادية، والترف الطاغي الذي يعيشه صغارنا، فما عادوا أصلاً يرونها نعماً، بل، ومع

المقارنة مع من هم أكثر حظاً منها منهم باتوا يرونها نقماً، واستحالة أن يقدر على شكرها من لم يراها نعمة، لذا الانطلاقة من ﴿۞أَلَمۡ تَرَ﴾ والعمل على التجلية والإرادة.

٣٧٩. الآية، وإن كان سبب نزولها خاصاً، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن كانت صورة السبب قطعية الدخول.

٣٨٠. فيها: تحذير من كفران النعمة.

٣٨١. تفيد: التذكير بواجب، وحق كل نعمة أنعم الله تعالى بها على عباده من نعم الدين، أو الدنيا.

٣٨٢. في الآية الكريمة من أوجه اللغة: حذف المضاف، وهو كثير فاش في العربية، لأنَّ الخلق لا يقدرون على تبديل نعمة الله، ولكن معناه بدلّوا شكر نعمة الله كفراً.

٣٨٣. فيها: أنَّه ينبغي أن يتفطن العبد لنعم الله فما أشقى الإنسان عندما تتحول النعمة في يده بيده إلى نقمة، وأداة الرفاهية، والسرور إلى أداة للشقاء، والشرور، وآلة الراحة، والتيسير إلى مطية لشر مستطير، وبلاء مبير، ومضيعة للوقت، والمال، ومشغلة عن طاعة الله، وحقوق الأهل والعيال، وسكين يمزق أديم دينه، وأخلاقه، وجرح غائر لا يتوقف عن النزف، بل يزداد عمقا يوماً بعد يوم، وهذا يظهر جلياً فيما امتن الله به على عباده من نعمة التقنية التي صرفت في غالب أحوالها، إلى عكس المقاصد الشرعية، والحقوق المرعية.

٣٨٤. فيها: أنَّه يجب التفطُّن لنعم الله، وتقييدها بالشُّكر، فإنها إن شكرت قرَّت، وإن كفرت فرَّت.

٣٨٥. تفيد: أنَّ الكفر بالنعم، وعدم رعاية حق الله تعالى هو بداية زوالها، ولو حدث من قلة سفها، ولم يؤخذ بأيديهم ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾.

٣٨٦. فيها: أنَّ المفرد المضاف يفيد: العموم، فإن النعمة هنا مفردة وقد أضيفت إلى أعرف المعارف، فالمراد بها نعم الله.

٣٨٧. فيها: ضعف عقول هؤلاء الذين استعاضوا عن الإيمان بالكفر، فضلّوا وأضلوا.

٣٨٨. فيها: أنَّه يقبح بالعبد، أن يستعين بنعم الله على معاصي الله، وعلى رأسها الكفر، ومن خير ما شكرت به نعمة الله تعالى أن تستعين وتتقوى بها على طاعة الله.

٣٨٩. فيها: أنَّ إضافة الشيء إلى سببه، لأنَّ الإحلال هو فعل الله تعالى، وقد نسبه إلى أكابرهم؛ لأنَّهم سبب للكفر.

٣٩٠. فيها: وبضميمة ما قبلها: رد على الجبرية، وفي التي قبلها رد على القدرية معاً

٣٩١. كفر النعم ينعكس شؤمه على الأفراد، والجماعات.

٣٩٢. وجوب الاعتبار بما حلّ بالأقوام السّالفة بسبب كفر النّعم.

٣٩٣. تفيد: أهمية التذكير بمن بدلّوا نعمة الله كفراً، وأخذ العبرة منهم، وكيف كانت نهايتهم.

٣٩٤. تفيد: أنَّ تبدلَّ الحال مرتبط بتبدلَّ حال العبد مع نعم الله تعالى إلى الخير، أو إلى السواء.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إبراهيم[٣٠]

٣٩٥. مناسبة هذه الآية للتي قبلها: أنه في الآية التي قبلها، ذكر الله سبحانه، وتعالى، الذين بدلّوا نعمة الله كفراً، والنعمة لا بد لها من مسدي، فإما أن يكون هو الله، أو غيره، فإن كان هو الله، فكيف يبدلّونها مع اعترافهم أنه منه، وإن كان الثّاني فإن إضافتها إلى غيره يُفضي إلى أن يكون ذلك الغير ندّاً لله تعالى، ولذلك قال تعالى عاطفاً على الآية التي قبلها ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ﴾.

٣٩٦. فيها: مع ما قبلها أن المخالفة تجر إلى شر منها؛ فقد ابتدأ حالهم بكفر النعمة، وهو أصغر، وانتهى باتخاذ الأنداد، وهو أكبر.

٣٩٧. يستفاد من تقديم الجار، والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾ على المفعول ﴿أَندَادًا﴾ تعيين أن يكون معنى "جعل" أي: "صيَّر" ففيها الرَّد على القائلين بخلق القرآن في حصرهم معنى "الجعل" في "الخلق".

٣٩٨. فيها: التحذير من نشر الشرك إذ الجعل كما يصدق باختراع ذلك، والوقوع فيه؛ فكذلك يصدق بتقريره، ونشره، والاحتجاج له.

٣٩٩. أعظم الضَّلال أن تجعل لله نداً من خلقه، سبحانه المتصف بصفات الكمال المنزه عن صفات النقص الذي هو شأن المخلوقات.

٤٠٠. يفيد: الجمع، والتنكير في قوله ﴿أَندَادًا﴾ يدلَّ على ذم الشرك، وضلال صاحبه أياً كان المعبود من دون الله؛ كما قرره شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في القواعد الأربع.

٤٠١. إيجاد البديل مقدماً لضمان نجاح مخططهم في الإضلال ﴿لِّيُضِلُّوا﴾.

٤٠٢. وفي هذا إشارة إلى سدنة الأصنام، والاوثان، ومنهم من يزينون عبادة القبور، والاضرحة فإن هؤلاء يضلون النَّاس، ويزينون الشرك، واتخاذ الانداد لينالوا لعاعة الدنيا، ويتمتعوا بأموال النذور ونحوها.

٤٠٣. فيها: أنَّ المشركين يسعون ليل نهار؛ لإضلال النَّاس، وفي ذلك حث على الدَّعوة إلى الحق، والإصلاح.

٤٠٤. تفيد: أنَّ الحق واحد، وليس متعدداً لقوله ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

٤٠٥. على قراءة الفتح في "ليَضلوا" تكون اللام للعاقبة ففيها أن عاقبة الشرك -مهما كان يسيراً- تصير إلى الضَّلال، ما لم يتب منه صاحبه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ النساء:[١١٦]

٤٠٦. فيها: من الحروف الناصبة للفعل المضارع "لام التعليل" وهي تنصب الفعل المضارع بعدها بأن مضمرة جوازاً، ويكون المصدر المؤول من أن المضمرة، والفعل في محل جر باللام

٤٠٧. تلقين الدعاة الحجج، والردود لكل ما قد يواجههم، ولا تكون عملية الدَّعوة عفوية، أو اعتباطية، فلنفطن، ولا يخططون، ونغفل.

٤٠٨. قل تمتّعوا: فيها: المبالغة في خذلان الكافر، وتخليته، وشأنه بسبب إعراضه عن دين الله.

٤٠٩. فيها: دلّالة على صدق النبي الكريم ﷺ وأنه مبلغ عن ربه بدلّالة قوله: ﴿قُل﴾.

٤١٠. فيها: رد على ادعاء أن القرآن من كلام محمد ﷺ، فلو كان كذلك لما احتاج للتوجيه وكثرة ورود الأمر له بـ: ﴿قُل﴾.

٤١١. كلمة [التمتع] -حسب التتبع، والاستقراء - تأتي للكفّار، والمشركين وفي ذلك إشارة إلى أن هذه الدنيا ليست دار راحة للمؤمنين، وإنَّما هي دار عمل وجد، واجتهاد استعداداً للآخرة.

٤١٢. فيها: نوع خرج به الأمر فيها: عن أصله، الذي هو الامتثال إلى التهديد : ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾والدلّيل قوله بعدها﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

٤١٣. فيها: الصَّبر على المدعو، وعدم استعجال العذاب عليه، وترك أمره لله بعد حسن البلاغ.

٤١٤. ينبّه الله تعالى العباد أنّ مدّة تمتّع الكافر في الدّنيا بالكفر، والعناد، والجحود قليلة، ومصيرها إلى الزّوال.

٤١٥. ومنها: كل متاع لا يراد به وجه الله فهو، وبال على أهله.

٤١٦. تفيد: أنَّ كل ما في الدنيا من الزخارف صائر إلى الزوال لقوله ﴿تَمَتَّعُواْ﴾من المتاع.

٤١٧. وفيها: أهمية الوضوح، والصراحة مع المخالفين للحق المعاندين لأهله؛ فلا مجال للتساهل مع هؤلاء.

٤١٨. وفيها: قوة الداعية، وشدته مع الكافرين المضلين.

٤١٩. في التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب؛ لإفضائه إلى المهدد به ﴿مَصِيرَكُمْ﴾أي مردكم، ومرجعكم في الآخرة ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1].

٤٢٠. فيها: من أوجه الإعجاز البياني: إزعاج المخاطب، وتنقيص متعته، والتنغيص عليه؛ إذا علم أن مآله إلى النَّار.

قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾إبراهيم[٣١]

٤٢١. تفيد: مناسبة الآية لما قبلها دعوته عليه السَّلام لينصرف لموعظة الذين تحدي فيهم الموعظة، الذين يتقبَّلون نعمة الله، ولا يردونها، ولا يستبدلُّون بها الكفر، انصرف إليهم ليعلمهم كيف يشكرون النعمة بالعبادة، والطاعة، والبر بعباد الله.

٤٢٢. يفيد: عدم عطف هذه الآية الكريمة على ما قبلها: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾الإيذان بتباين حال الفريقين، واختلاف شأنهما.

٤٢٣. تفيد: الآية مع ما قبلها لزوم المضي في الدَّعوة بشقيها: الداخلية، والخارجية الخارجية: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾، الداخلية: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾.

٤٢٤. فيها: تشريف مقام العبودية لإضافته إلى الله تعالى.

٤٢٥. تفيد: ارتباط العبودية بتحقيق الإيمان؛ لقوله: ﴿لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾

٤٢٦. تفيد: أنَّ المؤمن بحاجة إلى التذكير؛ فالذكرى تنفع المؤمنين، وفي هذه الآية تذكير لهم بشيء من أعظم الخلال، وهما الصَّلاة، والإنفاق.

---

(١) فتح البيان للقنوجي ٧/ ١١٥.

٤٢٧. جاء قوله ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ محذوفاً منه لام الأمر، تأكيداً على أنهم سيصعدون لتنفيذ الأمر فوْر سماعه"[١].

٤٢٨. تفيد: فضل الأنفاق في وجوه الخير، وفي كل الأحوال لما فيه من النفع المتعدي.

٤٢٩. تفيد: الآية أن الإنفاق من جزء المال، وليس من المال كله لقوله ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾.

٤٣٠. فيها: أنَّه عند تذكُّر المالك الحقيقي للمال، فإنه يسهل الإنفاق والعطاء ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾.

٤٣١. تفيد: أنَّ من لوازم الإيمان إقام الصَّلاة، وكذلك الزكاة.

٤٣٢. فيها: اشارة إلى مراعاة ما يقتضيه الظرف والحال ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾.

٤٣٣. يفيد: تقديم إنفاق السر على العلانية التنبيه على أنه أولى الأمرين في معظم الأحوال لبعده عن خواطر الرياء؛ ولأنه استر للمتصدق عليه.

٤٣٤. تفيد: أنَّ المقصود تعميم الأحوال في طلب الإنفاق، لكيلا يظنوا أن الإعلان يجر إلى الرياء كما كان حال الجاهلية، أو أن الإنفاق سراً يفضي إلى إخفاء الغني نعمة الله فيجر إلى كفران النعمة، فربما توخى المرء أحد الحالين فأفضى إلى ترك الإنفاق في الحال الآخر، فتعطل نفع كثير، وثواب جزيل، فبين الله للناس أن الإنفاق بِرّ لا يكدره ما يحف به من الأحوال، وإنَّما الأعمال بالنيات"[٢].

٤٣٥. ومنها: إخفاء العمل أحرى في القبول، وأبعد عن الرياء.

٤٣٦. لما كان المؤمنون يقيمون الصَّلاة من قبل، وينفقون من قبل تعين أن المراد الاستزادة من ذلك، ولذلك اختير المضارع مع تقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر لأنَّ المضارع دال على

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٣٣.

(٢) تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٥٢٩.

التجدد، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبس بالفعل الذي يؤمر به بخلاف صيغة (افعل) فإن أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن ملتبساً به"[1].

٤٣٧. تفيد: رجوع العباد إلى ربِّهم في يوم لا ريب فيه ففيها حث على التزود بالباقيات الصالحات ومن أهمها الصَّلاة، والأنفاق سرا وعلانية.

٤٣٨. أفاد تنكير كلمة ﴿يَوۡمٌ﴾تعظيم شأنه وفظاعته.

٤٣٩. ويمكن القول أن التمثيل للأولى بالبيع لأنَّه أشهرها؛ ولكونه العمدة في بابها، وللثانية بالخلة؛ لأنها أصدقها إذ لا تكون بغية نفع، أو جلب، أو بسبب قرابة و نسب. والله اعلم.

٤٤٠. فيها: أنَّ المراد بالخلال هنا آثارها، بقرينة المقام، وليس المراد نفي الخلة، أي الصحبة والمودّة لأنَّ المودّة ثابتة بين المتقين"[2].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ إبراهيم[٣٢]

٤٤١. فيها: بيان مظاهر قدرة الله في الكون وفق علمه وقدرته.

٤٤٢. فيها: عظيم خلقه، وبديع صنعه سبحانه، وتعالى في خلق السَّماوات والأرض.

٤٤٣. تهدي إلى: طلب التَّفكر في عظيم نعم الله بحد ذاته، فضلاً عما اقترن به التسخير.

٤٤٤. فيها: جميل عنايته سبحانه وتعالى بعباده، وتكفله بأرزاقهم في اخراج الثمرات على اختلاف أنواعها وتنوع أشكالها.

٤٤٥. وفي تخصيص التَّمر بالذكر دون الحب إشارة إلى أن أهميتها وأن منها من يقتات منها كالتمر.

---

(١) التحرير والتنوير١٣/ ٣٢٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٣٣.

٤٤٦. فيها: تعداد نعم الله عزَّ وجل على عباده فله سبحانه المنة، والفضل على سوابغ نعمه وجزيل العطايا، والهبات والمنح.

٤٤٧. تفيد: أنَّ السماء تطلق على العلو؛ لأنَّ الماء لا ينزل من السماء المبنية، وإنَّما من السحاب.

٤٤٨. وفيها: إثبات الأسباب، والتي لا تؤثر إلا بإرادة الله، لقوله: ﴿فَأَخۡرَجَ﴾.

٤٤٩. تشير إلى: أهمية اليقين والتَّوكل عند الأخذ بالأسباب؛ لقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾؛ فلا يكفي فقط وجود الماء، بل إخراجه - سبحانه - منه لنا الرزق.

٤٥٠. ومنها: لا شيء يسير في هذه الحياة إلا بتسخير الله جلَّ جلاله.

٤٥١. فيها: كمال لطفه، وعظيم منه سبحانه، وتعالى على عباده في تسخير الفلك في البحر، وتسخير الأنهار فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه، ولعظيم سلطانه.

٤٥٢. فيها: بيان لنعمة الله تعالى في تسخير النعم البحرية لعباده.

٤٥٣. تفيد: أثر [الفلك، والسفن] في حياة النَّاس، وكثرة منافعها، ولذلك ذكرت في القران كثيراً كآية وكنعمة عظيمة.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ إبراهيم:[٣٣]

٤٥٤. فيها: بيان قدرة الله في الكون.

٤٥٥. كمال قدرة الخالق سبحانه، وتعالى، وعظيم حكمته، وحسن تدبيره، ورعايته، في جريان الشمس، والقمر، حيث أنهما يسيران في منهج دقيق لا يُمل، ونظام لا يختل.

٤٥٦. وفيها: أنَّ كل ما في الكون مسخر للإنسان.

٤٥٧. من تشريف الله تعالى للإنسان أن سخر له من المخلوقات كالليل، والنهار لخدمته، ولتيسير معاشه، وراحته.

٤٥٨. الشـــمس، والقمر، والليل، والنهار من أعظم الآيات التي تدل على وحدانية الله تعالى وأنه هو المستحق للعبادة.

٤٥٩. تفيد: تقديم الشمس على القمر أنها أعظم خلقاً وظهوراً ومنَّة، ومنافع.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إبراهيم:[٣٤]

٤٦٠. فيها: أنَّ هنالك علاقة وطيدة بين الســـؤال، وتعداد النعم، وإجابة الدُّعاء فكان من آداب الدُّعاء، وســـؤال الحاجات تقديم حمد الله، والثناء عليه، وحضـــور القلب، وذكر نعمه وآلاءه.

٤٦١. فيها: أنَّ الله سميع مجيب الدُّعاء.

٤٦٢. فيها: أنَّ الله يستجيب للعبد إذا سأله، فلنحسن السؤال من الكريم سبحانه.

٤٦٣. تفيد: أنَّ الله عزَّ وجل أعطى الإنسان ما سأل وما لم يسأل منّة منه، وفضلاً؛ الأصلُ ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾؛ فحُذِفَ الثَّاني لدلَّالةِ ما أُبْقِيَ على ما أُلْقِيَ"[١]

٤٦٤. فيها: أنَّ يكثر العبد من سؤال ربه كل حاجاته دون استثناء، ودون حرج كما هو فعل الصحابة.

٤٦٥. في هذه الآيات من أصـناف نعم الله على العباد شـيء عظيم، مجمل، ومفصـل يدعو الله به العباد إلى القيام بشـــكره، وذكره ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في ســـؤاله، ودعائه، آناء الليل، واطراف النهار، كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات"[٢].

٤٦٦. فيها: مستند لقاعدة أن المفرد المضاف يفيد: العموم؛ لأنَّ المقصود بالنعم هنا النعم.

٤٦٧. فيها: أنَّ فضل الله لا يحد بحد.

---

(١) تفسير بن السعود ٤٨/٥

(٢) تفسير السعدي ص ٤٢٦.

٤٦٨. وفيها: مهما فعل العبد فلن يستطيع شكر النعم.

٤٦٩. فيها: التنبيه الضمني على دوام شكر الله، والإكثار من حمده فيما علمنا، وما لم نعلم من نعمه وأن لا يفتر اللسان من ذكره.

٤٧٠. فيها: التنبيه على خطأ يقع فيه بعض الدعاة فضلاً عن العامة، وهي قولهم" نعم لا تعد ولا تحصى" وهذا خطأ فإن نعم الله تعد، ولكنها لا تحصى، فتقول أنعم الله علينا بالعافية، والمال، والولد، والفراغ، ..الخ، فقد اثبت الله العد، ونفى الإحصاء أي الوصول إلى النهاية.

٤٧١. هناك فرق بين العد، والإحصاء الأولى تعني تراكم المفردات، والمعدودات كماً والثانية تعني فرز المعدودات كماً، ونوعاً وهذا من العلوم الحديثة التي عرفها النَّاس فكيف لهذا النبي الأمي أن يأتي بهذه الكلمتين في نفس الموضع مما يمكن أن يستدلَّ به على أن هذا القرآن من عند العليم الحكيم.

٤٧٢. قد تختلف الفاصلتان في موضعين، والمحدث عنه واحد؛ وذلك لنكتة لطيفة؛ كما في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾، وقوله تعالى : سُورة النحل ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾النحل:[١٨] .

ففي الآية الأولى يقول جلَّ وعلا للإنسان إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان: كونك ظلوماً وكونك كفاراً، وفي الآية الثانية يقول سبحانه للإنسان ولي عند إعطاء النعمة لك وصفان وهما أني: غفور رحيم، أقابل ظلمك بغفراني وكفرك برحمتي.

٤٧٣. تفيد: أنَّه لو قدر أن العبادة جزاء النعمة لم توف العبادة شكر قليل منها، فكيف، والعبادة إنَّما هي من نعم المنعم سبحانه وتعالى؟ وفي ذلك ابيات مشهورة:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة عليَّ له في مثلها يجب الشُّكر

٤٧٤. فيها: التنبيه إلى أن نعمة الله أكثر النَّاس لا يعرفون منها إلا ما هو ظاهر، محسوس ملموس، وإلا فإن نعمة الله الباطنة هي أكثر بكثير ولذا قال الله تعالى﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾.

٤٧٥. فيها: بيان عجز الإنسان فمهما بلغ من العلم، والمعرفة وطور الأجهزة الرقمية، والحاسبات فلن يستطيع ويقف عاجز أمام حصاء ما يحيط به من النعم.

٤٧٦. فيها: عجز الإنسان عن تعداد نعم الله عزَّ وجل.

٤٧٧. فيها: أنَّه ليس باستطاعة أي مخلوق كائناً من كان أن يحيط بأنعم الله، وهو يتقلب في أفيائها المتصلة المتدفقة الشاملة لأدق تفاصيل حياته اليومية.

٤٧٨. فيها: التنبيه على الصَّبر على النَّاس، والأهل، والأولاد ممن تسدي إليهم معروفاً ويجحدون، فهم قد جحدوا الباري فكيف بخلقه.

٤٧٩. فيها: أنَّ صيغة المبالغة في ظلوم، وكفار تفيد: كثرة هذه الخصال في البشر.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾إبراهيم:[٣٥]

٤٨٠. تفيد: دقة التَّناسب وروعة التَّناسق مع ما قبلها، فبعد أن ذكر الله تعالى قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ذكر بعدها موضعاً من أهمَّ مواضع استجابة الدُّعاء، وهو البيت العتيق، وأيضاً من وجوه المناسبات: أن في الآيات ذكر لبعض النماذج، والصور لاستجابة الله لدعاء عباده، وإيتائه لهم من كل سألوه، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾.

٤٨١. مناسبة الآية لما قبلها أيضاً: أنه سبحانه لما امتن على عباده بسوابغ النعم، وذكر مع ذلك أن الإنسان يقابل ذلك بالظلم، والكفر، ذكر في هذه الآية، ما يجب أن تقابل به النعم، وهو عبادته، وإخلاص القلب به، وذكر في مقام الاقتداء الخليل عليه السَّلام، مع شدة عبادته وتمسكه، هو يلهج بالدعاء إلى الله أن يجنبه، وبنيه من عبادة الأصنام.

٤٨٢. فيها: أنَّه لا تثريب إذا خص بلد دون أخرى بالدعاء؛ فليس واجباً أن يقول "وسائر بلاد المسلمين". وهذا لمجرد التأصيل والتقرير.

٤٨٣. ومن المناسبات كذلك: أن الله تعالى يستجيب لدعاء الوالد لأولاد، وذريته، ودعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب، حيث يدخل ذلك ضمن قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾أي: لأنفسكم، ولأهلكم وأحبابكم، وعموم المؤمنين والمؤمنات في الدنيا، والآخرة؛ كما فعل إبراهيم عليه السَّلام: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾و﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

٤٨٤. ومن وجوه المناسبة: أن في هذه الآيات ذكر لبعض آداب الدُّعاء، والمسألة كالثناء على الله تعالى؛ كقول إبراهيم عليه السَّلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.

٤٨٥. فيها بيان فضل إبراهيم عليه السلام، ودعوته لذريته من بعده بأفضل دعاء لإخراجهم من المهالك.

٤٨٦. وفيها: أهمية الأمن فهو أهمَّ المطالب لأداء العبادات، والمعاملات.

٤٨٧. ومنها: أهمية الأمن الجسدي، والنفسي.

٤٨٨. الدُّعاء باسم ﴿رَبِّ﴾نسق سار عليه أغلب الأنَّبياء.

٤٨٩. تفيد: بلاغة القرآن، ودقة تعبيره فلما كان بلداً قائما عرّفه كما في هذا الآية ﴿الْبَلَدَ﴾ ، ولما كان وادياً غير مسكون قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾.

٤٩٠. فيها: البداية بالنفس عند الدُّعاء.

٤٩١. ومنها: الإنسان مهما بلغ في منازل الإيمان لا يأمن على نفسه الفتنة.

٤٩٢. فيها: الخوف على الأبناء من الشرك بالله، والشواهد مستفيضة.

٤٩٣. فيها: الاهتمام بالدعاء للذرية مع النفس.

٤٩٤. فيها: أنَّه ينبغي للإنسان أن يشمل ذريته بالدعاء، لأنَّ الذرّية الصالحة من آثار الإنسان، وامتداد لعمله.

٤٩٥. في الآية من البديع في علم العربية أن الضمير المنصوب المتّصل، يحسن العطف عليه من غير تأكيد، لقوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾ ولا يعطف هو على غيره إلا بإعادة العامل؛ نحو: رأيت زيدا ورأيتك.

٤٩٦. فيها: أهمية التَّوحيد فهو سبب الأمن والاستقرار.

٤٩٧. فيها: الخوف الشديد، من الشرك بالله، وهو أظلم الظُّلم، وأعظم جرم وقع يقع فيه المذنب.

٤٩٨. فيها: تعظيم الأنبياء عليهم السَّلام لشأن التَّوحيد، ومحبتهم له، وكراهتهم للشرك، وبغضهم له.

٤٩٩. تفيد: أنَّ الأصنام كانت معروفة، ومنتشرة في زمن الخليل إبراهيم عليه السَّلام؛ ولهذا خاف على نفسه وعلى بنيه عبادتها؛ لقوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾.

٥٠٠. فيها: الحذر من فتنة الأصنام، والاوثان.

٥٠١. فيها: بيان الشرك الأكبر في أظهر صوره وهي عبادة الأصنام، والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذكر الشرك الأصغر في أخفى صوره وهي الرياء.

قال تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ إبراهيم: [٣٦]

٥٠٢. فيها: استحباب الدُّعاء بـ ﴿رَبِّ﴾ وهو أكثر دعاء الأنبياء والصالحين في القرآن الكريم.

٥٠٣. تفيد: أنَّ ضعفاء النفوس في كل زمان، ومكان يأبون إلا الارتماء في أحضان الأصنام، التي لا تنفع ولا تضر، ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾.

٥٠٤. فيها: بيان خطورة الشرك حيث إضلال النَّاس كان بعبادتهم لها.

٥٠٥. تفيد: أنَّ إبراهيم عليه السَّلام وهو على غاية من الحق والصواب- يجأر إلى الله من مخاطر الأصنام، ولا يجأر إليه من مخاطر الحكام على جسامة فسادهم، وخطرهم، التي قص الله في كتابه في محاورته معهم.

٥٠٦. تفيد: خطورة الأصنام، وأثرها في إضلال كثير من النَّاس، وأنت ترى ملايين البشر يعبدون الأصنام مثل بوذا وغيره، مما يدلُّ على بقاء هذه الفتنة، واستمرارها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "لا تقوم السَّاعة حتى تعبد اللات والعزى"(١).

٥٠٧. فيها: جرم، وخطر إضلال النَّاس؛ فيدخل في الدَّعوة إلى الشرك، الدَّعوة إلى أنواع المحرمات من المرئي، والمسموع. قال الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾ لقمان:[٦] .

٥٠٨. فيها: رد على الجبرية.

٥٠٩. ومنها: كثرة السالكين للطريق لا تعني أنه طرق خير، وصواب.

٥١٠. منها: من الأدب في الدُّعاء عدم نسب الشر المحض لله.

٥١١. وفيها: الحث على اتباع نهج الأنبياء.

٥١٢. فيها: فضيلة اتباع ملة إبراهيم الخليل عليه السَّلام؛ ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ النحل:[١٢٣] .

٥١٣. تفيد: أنَّ رابطة العقيدة، والتوحيد، والإيمان مقدمة على رابطة الأخوة، والقرابة.

٥١٤. فيها: بيان شفقة ورحمة خليل الله إبراهيم عليه السَّلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة، والرحمة من الله تبارك وتعالى.

---

(١)مسلم ٤/٢٢٣٠.

٥١٥. فيها: حسن أدب الرّسل، فإن إبراهيم عليه السَّلام لم يدع على من عصاه، بل يرغب، ويختار أن يعامله الله بلطفه، وعطفه، وغفرانه وأن يغفر الله له، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

٥١٦. ومنها: من أبرز صفات الداعية لله لين القلب، والرحمة.

٥١٧. فيها: إثبات اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى، وهما:(الغفور، والرحيم).

قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ إبراهيم:[٣٧]

٥١٨. فيها: التَّوسُّل باسم الله (الرب) عند الدُّعاء، وهذا كثير في دعاء الأنَّبياء، وهم الصفوة من عباده.

٥١٩. تفيد: جواز التوطئة وذكر الحال قبل المسألة.

٥٢٠. فيها: أنَّ المسكن من حق المرأة على الرجل.

٥٢١. فيها: أنَّ الزوجة من الذرِّية كما أنها من الأهل.

٥٢٢. تفيد: أنَّ إبراهيم عليه السَّلام لم يسكن أهله كلهم لقوله ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾

٥٢٣. أفادت: الآية تعظيم الواد، وفظاعته في ذلك الزمن لتنكير الكلمة.

٥٢٤. فيها: تعظيم، وإجلال البيت الحرام بإضافته إلى الملك العلَّام.

٥٢٥. فيها: عند قوله ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ بيان لحرمة مكة وأنها اختصت دون الأماكن والبلدان بخصائص ليست لغيرها، وهي أنه لا يصاد صيدها، ولا يختلى خلاها، ولا تجوز لقطتها الا لمنشد ولا يحل فيها: القتال.

٥٢٦. فيها: إشارة إلى فضل سكنى مكة حرسها الله.

٥٢٧. فيها: أنَّ إقامةُ الصَّلاة مِن أخَصِّ وأفضَلِ العباداتِ الدِّينيةِ، فمَن أقامَها كان مقيمًا لدينِه "(١).

(١) تفسير السعدي ٤٢٧.

٥٢٨. وفي ربطها بالواقع إشارة إلى أن على الحكومات توفير سبل العيش للعباد؛ ليتمكنوا من إقامة الصَّلاة وسائر شعائر الدين.

٥٢٩. تفيد: أنَّ غذاء الأرواح مقدم على غذاء الأشباح.

٥٣٠. تفيد: أنَّ من أدب الدُّعاء تقديم أمر الدين على الدنيا، والآجلة على العاجلة.

٥٣١. فيها: التَّوسُّل في الدُّعاء بصيغة الجمع مع أن الداعي واحد، وهذا أدب من آداب الدُّعاء وله دلَّالاته في التعظيم، والافتقار الجماعي إلى الله عزَّ وجل.

٥٣٢. تفيد: أنَّ أمر القلوب بيد الله عزَّ وجل وحده ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ﴾.

٥٣٣. تفيد: مكانة الجماعة والاجتماع في تحصيل خيري الدنيا والآخرة﴿لِيُقِيمُواْ﴾وقوله ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

٥٣٤. تفيد: مكانة القلب وأنه الآمر الناهي، والجوارح تبع له قال السدي رحمه الله (فإنَّه حيث يَهوى القلبُ يذهَبُ الجسَدُ لقوله:﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[1] .

٥٣٥. تفيد أهمية الاجتماع البشري لنهضة المجتمعات، وأن الإنسان مدني بالطبع.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ إبراهيم:[٣٨]

٥٣٦. تفيد: الترغيب في تكرار النداء بـ ﴿رَبَّنَآ﴾ للمبالغة في الضراعة والابتهال[2].

٥٣٧. حذف "يا" المنادي للبعيد تفيد: قرب الله عزَّ وجل﴿رَبَّنَآ﴾.

٥٣٨. تفيد: أنَّ المناجاة أرفع مقاماً، وأعظم حسن ظناً وثقةً في الله من المناداة وهي حال أهل العبودية الخاصة والمقامات العلية.

---

(١) الدر المنثور، السيوطي ٤٨/٥

(٢) الكشاف، الزمخشري ٥٦٠/٢

٥٣٩. تفيد: ضراعة إبراهيم عليه السَّلام -لما أسكن ذريته بواد غير ذي ذرع، وتدلَّ على مدى انفعال نفسه عليه السَّلام بهذا الرجاء، وتأكيدها لهذا الدُّعاء.

٥٤٠. فيها: كمال التسليم، والتفويض لله عزَّ وجل.

٥٤١. تفيد أن من أوجه الدعاء والضراعة لله عز وجل، الاعتراف له بالعلم المطلق والقدرة المطلقة والملك العظيم، وإظهار العبودية له جل وعلا.

٥٤٢. تفيد: أنَّ الله عز وجل يعلم الأشياء كلها ظاهرها، وباطنها، ولا يخفى عليه شيء منها في الأرض، ولا في السماء.

٥٤٣. ومنها: طمأنينة للمتقي لعلم الله به.

٥٤٤. ومنها: أنَّ أسمىٰ مراتب العبودية لله مراقبته في السر قبل العلن.

٥٤٥. تفيد: أنَّه يجب الخوف من الله تعالى، واستشعار مراقبته جلَّ وعلا، لأنَّ الله تعالى بكل شيء عليم؛ فإذا كان الله عليماً بكل شيء، حتى ما نخفي في صدورنا، أوجب لنا ذلك أن نحترس مما يغضب الله عزَّ وجل.

٥٤٦. فيها: تعليم من إبراهيم عليه السَّلام لأهله، وأتباعه بإحاطة علم الله.

٥٤٧. وفيها: من مهام الأنبياء، والمصلحين إرشاد النَّاس للخير.

٥٤٨. يفيد: تقديم (الأرض) في هذه الآية على السماء بالرتبة، لأنها منتظمة بذكر ما هي أقرب للناس، ولا يقال تقديم شرف، ورفعة وأن الأولية لها مدخل في الأولوية.

قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ إبراهيم:[٣٩]

٥٤٩. فيها: أنَّ على المؤمن أن يشكر الله عزَّ وجل على ما وهبه من النعم، ومن أجلها الذرِّية الطيِّبة، يستحب تسميتهم بأسمائهم.

٥٥٠. الجملة الأسمية تفيد: استقرار الحمد واستمراره وديمومته لله عزَّ وجل فهو أهل لذلك ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

٥٥١. فيها: أنَّ (ال) تفيد: استغراق المحامد كلها فهو عزَّ وجل أهل لها.

٥٥٢. تفيد: الترغيب في أدب تقديم المحامد للرب جلَّ وعلا بين يدي الدُّعاء.

٥٥٣. وفيها: نسبة النعمة للمنعم سبحانه.

٥٥٤. تفيد: أنَّ الذي يهب الذرِّية هو الله عزَّ وجل وحده؛ ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾الشورى:[٤٩] ، وفي هذا بيان لضلال من يلجؤون لغير الله في طلب الذرِّية.

٥٥٥. وفيها: نعمة الذرِّية من النعم العظيمة التي تستحق الشُّكر، والثناء.

٥٥٦. فيها: أنَّ ذكره الكبر؛ لأنَّ المنّة بالولد أعظم في حال اليأس.

٥٥٧. فيها: أنَّ على المؤمن أن يستمر بالدعاء، ويوقن بالإجابة، ولو بعد سنين مديدة.

٥٥٨. فيها: أنَّ الله عزَّ وجل لا يعجزه شيء ولا يحول دون أمره مانع فقد أعطى إبراهيم عليه السَّلام الذرِّية على كبر سنه.

٥٥٩. فيها: أنَّه لا يأس من عدم الإنجاب، وإن تقدم العمر؛ فالله على كل شيء قدير.

٥٦٠. فيها: إرادة الله عزَّ وجل نافذة لا يحدها حد.

٥٦١. تفيد: الترغيب في ذكر، وتعداد النعم، والاسترسال فيها: تفصيلا وشكر المنعم عليها سبحانه وتعالي.

٥٦٢. تقديم إسماعيل يفيد: أنه أكبر ولد إبراهيم، وأنه ولد قبل إسحق عليهم السَّلام.

٥٦٣. تفيد نعمة صلاح الذرية، فوكونهم أنبياء صالحين أجل وأفضل منة من الله لإبراهيم وابنيه عليهم السلام.

٥٦٤. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فيها شعور بالشكر الجزيل لربه؛ لأنه الذي ربه وكونه وقام على شئونه واستجاب دعاءه.

٥٦٥. في الآية من أوجه اللغة، أن مما تختص به" إن المكسورة" دون بقية اخواتها، جواز دخول لام الابتداء على خبرها لقوله﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ قال ابن مالك في الألفية:

وبعدَ ذاتِ الكسرِ تَصْحبُ الخَبرْ لامُ ابْتداءٍ نحوُ: (إنّي لَوَزَرْ)

٥٦٦. فيها: أنَّ من معاني السَّمع، سمع الإجابة: أي أن الله يستجيب لمن دعاه.

٥٦٧. تفيد الحث على اللهج بالدعاء والتضرع لله سبحانه وتعالى.

٥٦٨. فيها أن السميع وصف ذاتي لله تعالى، مستعمل في إجابة المطلوب كناية، وصيغ بمثال المبالغة أو الصفة المشبهة ليدلّ على كثرة ذلك وأن ذلك شأنه سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

٥٦٩. تفيد: بدلّالة السياق أهمية اختيار الجوار لبيوت الله تعالى، والبيئة الحسنة التي تساعد على صلاح الذرِّية مع الدُّعاء لهم كما سبق ذلك في قوله تعالى ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٥٧٠. ومنها تكرار التَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ﴿رَبِّ﴾..﴿رَبَّنَا﴾.

٥٧١. فيها: أنَّ الدُّعاء من أجل أسباب التوفيق فيما يختص بالنفس والأهل.

٥٧٢. فيها: أنَّه يبدأ بالدعاء لنفسه ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾ ثم لغيره.

٥٧٣. ومنها إشراك من نحب في دعائنا ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ وأولهم الذرّية.

٥٧٤. تفيد: أهمية القدوة في التربية.

٥٧٥. تفيد: أنَّ صلاح الأبناء يحتاج إلى إعانة ربانية.

٥٧٦. تفيد: أهمية حمل هم صلاح الذرِّية، والسعي فيما يصلحهم.

٥٧٧. ومنها التبرؤ من حول العبد وقوته إلى حول الرب وقوته ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾ فالعبد ضعيف بنفسه قوي بربه لا سيما فيما يكلف به من أمور الدين.

٥٧٨. ومنها إحسان الداعي اختيار الحاجة والمسألة ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾

٥٧٩. تفيد: الاستعانة بالله، ودعائه في القيام بأمر الدين ومن أعظمه الصَّلاة.

٥٨٠. في دعائه أن يقيم الصَّلاة فيه تنبيه على ضرورة العمل على إقامتها بأفضل، وأكمل صورة.

٥٨١. التهاون في أمر الصَّلاة من الأبناء، أمرٌ مخيفٌ، ومحزنٌ للغاية، فلا بد من مضاعفة الاعتناء بها، والحض عليها، وإقامتها حق القيام.

٥٨٢. ومنها الدُّعاء لبلوغ أقصى مقامات، ودرجات المطلوب والمحبوب ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فإقامة الصَّلاة أعلى درجة من مجرد أدائها إسقاطاً للتكليف بها.

٥٨٣. تفيد: حاجة كل مسلم لهذا الدُّعاء أن يجعله ربه مقيماً للصلاة ظاهراً بالأركان، والشروط، والواجبات، والسنن وباطناً بالخشوع، وللتدبر لما يقال ويتلى.

٥٨٤. تظهر فيها: حب إبراهيم عليه السَّلام وعنايته بذريته والدُّعاء لهم بالصلاح والفلاح.

٥٨٥. فيها: عظم شأن الدُّعاء وأنه سلاح قوي في صلاح الذرِّية.

٥٨٦. فيها: استجابة الله له فكان ابنه إسماعيل عليه السَّلام يتمثل ذلك واقعاً في نفسه ونصحاً لأهله ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٥﴾ مريم:[٥٥] .

٥٨٧. تفيد: أنَّ الدُّعاء يحتاج منَّا دعاء آخر أن يتقبله الله لقوله﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾وكما ورد عن السلف أنهم كانوا يدعون الله أن يبلغهم رمضان، ثم يدعون الله أن يتقبل منهم رمضان.

٥٨٨. من هدي المرسلين، الدُّعاء بتقبل الدُّعاء في ختام الدُّعاء.

٥٨٩. فيها: حسن أدب إبراهيم عليه السَّلام في دعائه لربه عزَّ وجل حيث طلب من الله بعد أن دعاه أن يستجيب دعائه.

٥٩٠. فيها: أنَّ مما يحذف من ياءات الإضافة تخفيفاً وهو كثير في رسم المصحف كما في قوله﴿وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ إبراهيم:[٤١].

٥٩١. تفيد: أنَّ من أدب الدُّعاء البداءة بالنفس، ثم الأولى، فالأولى.

٥٩٢. تفيد: القاعدة أن الإنسان يؤثر نفسه في جنس القربات، وكما قيل:

ويكره الإثار في جنس القرب وفي ما عداها يستحب

٥٩٣. تفيد: أنَّ من أعظم المطالب مغفرة الذُّنوب.

٥٩٤. فيها: عطف العام على الخاص.

٥٩٥. فيها: الترغيب في الدُّعاء للوالدين، وأنهم أحق الخلق بالدعاء بعد النفس.

٥٩٦. فيها: الترغيب في الدُّعاء للمؤمنين، والمؤمنات الأحياء منهم، والأموات.

٥٩٧. تفيد أن طلب الغُفران من المعصوم إيذان بطلاقة قدرة الله في الكون، ذلك أن اختيار الحق سبحانه للرسول –أيّ رسول– لا يُعفي الرسول المختار من الحذَر وطلب المغفرة وها هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إني أستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة)[1].

٥٩٨. فيها: حث المسلم للدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب.

٥٩٩. تفيد: أنَّ سلامة الصدر للمؤمنين، وعلامة ذلك الدُّعاء لهم من أخلاق الكبار.

٦٠٠. في الآية الكريمة صحة تقسيم النحويين" للظرف" إلى متصرف، وغير متصرف، فإذا كانت الكلمة تارة تأتي ظرفاً، وتارة تأتي غير ظرف فإن هذا يسمى ظرفاً متصرفاً، مثل كلمة ﴿يَوۡمَ﴾في الآية الكريمة، فهي في الآية ظرف؛ بدلّيل أنها منصوبة على تقدير (في)، أي: في يوم يقوم الحساب، وذات الكلمة تأتي ولا تكون ظرفاً، قال ابن مالك رحمه الله:

وما يرى ظرفا وغير ظرف فذاك ذو تصرف في العرف

وتنسحب هذه القاعدة في ظرف المكان أيضاً.

٦٠١. في الآية، والآيات قبلها تنبيه للدُّعاة أن أفضل الدُّعاء هو ما ورد في القرآن، والسنة، فهو أجمع الدُّعاء، وأشمله، والحذر من السجع المتكلف، والإطالة التي تبلغ حد الملل عند بعض الأئمة، فمن صلى بالناس فإن تصرفه تصرف مصلحة لا تشهي.

---

(١) تفسير الشعراوي(١٢/٧٥٨٥).

٦٠٢. تفيد: عظم، وشائج الإيمان، والتي لا يحدها المكان، ولا الزمان.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ إبراهيم:[٤١].

٦٠٣. تهدي إلى معاني صفات جلال الله وكمال علمه الذي لا يعتريه غفلة، ولا غياب.

٦٠٤. تهدي: إلى أساليب تسلية الله للمؤمنين في القرآن.

٦٠٥. تهدي بكمالها إلى قاعدة اليقين في نفوس المؤمنين حال وقوع الظُّلم وعبث الظالمين، فشيء منها متعلق بحسن الظن بالله، والإيمان بأنه غير غافل عما يعمل الظالمون.

٦٠٦. في الآية الكريمة، وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم، فعلى الظالم أن يكون وجلاً وعلى المظلوم أن يكون جذلاً.

٦٠٧. فيها: حسن الظن بالله، وأنه لا يؤخر، ولا يقدم إلا لحكمة.

٦٠٨. فيها: تحذير من الظُّلم، وبيان لعواقبه الوخيمة.

٦٠٩. فيها: رد على الجبرية؛ لأنَّه أثبت لهم العمل ووصفهم بالظلم بسببه.

٦١٠. تهدي إلى أن وصف الأيام بما يكون فيها: من الصفات، والأحداث ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أقوى من مجرد تسميتها، وهي فائدة لمن رغب التاريخ.

٦١١. فيها: كمال حلم الله تعالى بحيث لا يعجل بالعقاب.

٦١٢. فيها: أنَّ إن السنة آتية لا ريب فيها، وإن استبطأها النَّاس واستعجلوها، ولكن الله يؤخرها على ما تقتضيه حكمته جلَّ وعلا.

٦١٣. فيها: أنَّ هذه الآية عامة خصت ببعض الصور فقد عجل الله – عزَّ وجل – عقوبته لبعض الظالمين وجازاهم على ظلمهم، وطغيانهم في الحياة الدنيا كما حصل ذلك لكثير من الظالمين، والطغاة، والجبابرة.

٦١٤. فيها: اثبات صفة من صفات الله، ولكن هي من الصفات التي لا تطلق على الله إلا باقتران ما يقابلها، لكن يظن الظان أنها صفة نقص، فإن صفات الله ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، قال الهراس:

والتقديم، والتأخير صفتان من صفات الأفعال التابعة لمشيئة الله تعالى، وحكمته، وهما أيضاً صفتان للذات؛ إذ قيامهما بالذات لا بغيرها، وهكذا كل صفات الأفعال هي من هذا الوجه صفات ذات، حيث إن الذات متصفة بها، ومن حيث تعلقها بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تسمى صفات أفعال". قال ابن القيم رحمه الله:

وهو المقدم والمؤخر ذانك الصـ ـفتان للأفعال تابعتان
وهما صفات الذات أيضاً إذ هما بالذات لا بالغير قائمتان

قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ إبراهيم:[٤٣]

٦١٥. تفيد: الآية الذلّ، والهوان الذي يكون عليه الظالم المعتدي يوم القيامة.

٦١٦. فيها: أنَّ الاسم إذا كان في الأصل مصدراً، فإنه لا يجمع، بل يصلح لفظه للواحد، والجماعة كما في الآية الكريمة في قوله" طرفهم؛ لأنَّ النعت بالمصدر مطرد قال ابن مالك:

ونعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الافراد، والتذكيرا

وقال زهير:

متى يشتجر قوم يقل سرواتهم هم بيننا هم رضى وهم عدلُ

ولأجل مراعاة هذا لم يجمع في القرآن السمع، والطرف، والضيف؛ لأنَّ أصلها مصادر مثال الأوَّل: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ﴾،ومثال الثَّاني: هذه الآية التي نحن الآن بصددها، ومثال الثالث: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ الحجر:[٦٨] .

٦١٧. تفيد أن وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد، لقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ بل تقف أعينهم شاخصة لا تطرف، أو: لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم.

٦١٨. فيها أن قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخواطر والأفكار لعظم ما ينالهم من الحيرة، بدلالة قوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

٦١٩. تفيد أن من الضروري للمرشدين من الدعاة والعلماء أن يقوموا بعملية توعيةٍ وإبلاغٍ وانذارٍ للناس بمثل هذه المشاهد.

٦٢٠. فيها التنديد بالظلم وبيان عقاب الظالمين بذكر أحوالهم.

٦٢١. فيها فصاحة القرآن وبلاغته المتناهية، وذلك بأن يصوّر منظراً أو يجسّم موقفاً يستخدم أقصر العبارات في أكمل بيان .

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ إبراهيم:[٤٤]

٦٢٢. تفيد: عموم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للناس جميعاً؛ لقوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾.

٦٢٣. وفيها: شدة عذاب الله عزَّ وجل.

٦٢٤. فيها مظهر من مظاهر الشفقة من البر الرحيم سبحانه للإنذار قبل الوقوع.

٦٢٥. يؤخذ من الآية الكريمة أن أسلوب الترهيب نافع مع بعض المدعويين؛ بدلّالة أسلوب الترهيب، وهو من الأساليب القرآنية التي يكثر ورودها.

٦٢٦. فيها التحذير الشديد من الظلم بأنواعه، لاسيما الشرك.

٦٢٧. تفيد شدة الحسرات والندم لأهل الكفر، على تركهم دين التوحيد.

٦٢٨. تفيد أهمية اتباع الرسل لاسيما في قضية التوحيد ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ وهي دعوة جميع الأنبياء.

٦٢٩. تفيد وجوب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، بدلالة التعبير بلفظ الجمع في قوله: ﴿ٱلرُّسُلُ﴾.

٦٣٠. فيها: توبيخ وتأنيب للكفَّار على ما كان منهم من التفريط في الدنيا بقول الله عزَّ وجل ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

٦٣١. تفيد الرد على منكري البعث من الجمهورين والشيوعين الذين يقولون (لا إله والحياة مادة) لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

٦٣٢. فيها أن كل ما يقوله الإنسان أو يعمله موجود مكتوب عند ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [سورة الانفطار: ١١-١٢].

قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾إبراهيم:[٤٥]

٦٣٣. فيها: دلَّالة واضحة على عدم تصديقهم، وكفرهم؛ لأنَّهم سكنوا، واستقروا في مساكن الظالمين دون ن يحرك فيهم ساكناً.

٦٣٤. المراد بالسكنى: الحلول في أماكن الظالمين لوقت يكفي للاتعاظ، والاعتبار، وكفار قريش كانوا يمرون بقوم ثمود في رحلتهم إلى الشام، وكانوا يحطون رحالهم هناك، كما كانوا يمرون على ديار قوم عاد في رحلتهم إلى اليمن.

٦٣٥. فيها: التحذير من اتخاذ سكنى مساكن الظالمين.

٦٣٦. وفيها إشارة إلى استحباب مساكنة المؤمنين، والأماكن التي تعين على الطاعة، والعبادة كسكنى المدينة المنورة ومكة المكرمة.

٦٣٧. فيها: حكمة الله في إنزال العذاب، والبلايا، والأوبئة وجل أفعال الله بعبادة.

٦٣٨. فيها: بيان شدة عذاب الله عزَّ وجل للظالمين.

٦٣٩. فيها: اعذار الله لعباده بضرب الأمثال وتنبيه الغافلين.

٦٤٠. فيها: بيان أخذ العبرة والعظة بما يؤول اليه حال الظُّلم، والظالمين

٦٤١. فيها: بيان عنادهم فقد تبين وظهر لهم ما فعل الله بمن قبلهم.

٦٤٢. فيها: أنَّ آيات الله عزَّ وجل بينة واضحة في آثار الظالمين، وأماكنهم الخربة؛ لقوله: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾.

٦٤٣. فيها: أنَّ ضرب الأمثال من أبلغ الأساليب في إيصال المعاني، والاعتبار.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ إبراهيم:[٤٦]

٦٤٤. فيها: كل ماكر لا محالة عائد مكره عليه.

٦٤٥. فيها: محط الطمأنينة المطلقة ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾ كل شيء.

٦٤٦. تشير إلى المكر العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل.

٦٤٧. فيها: أنَّ مكر الله سبحانه وتعالى إحقاق للحق، وإظهار له، وإبطال للباطل ودحض له.

٦٤٨. تشير إلى إظهار عجزهم واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله سبحانه

٦٤٩. ومنها: كثرة الفساد، والمكر تجلب الكوارث، والزلازل الكونية

٦٥٠. ومنها: بعض القلوب أقسى من الجبال.

٦٥١. تفيد فساد رأي المشركين، حيث باشروا فعلاً مع تحقق ما يوجب تركه.

٦٥٢. تفيد قوة وثبات أمر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: وقد مكروا والحال أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التي هي كالجبال في القوة[1].

(١) روح المعاني، الآلوسي ٢٣٦/٧.

٦٥٣. تفيد: واقعية هذا الدين فهو يسمي الاشياء بمسمياتها، ويجلي الحقائق على صعوبتها: ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾، ثم يسلط الضوء على الحقيقة في الوجه المقابل باثّاً روح الطمأنينة، فالله مع رسله، هو العزيز ذو انتقام.

٦٥٤. تفيد: شـــدة مكر الكفّار وكثرته، وقوته وهذا على القراءة الأخرى ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ إبراهيم:[٤٧]

٦٥٥. تفيد: استحاله إخلاف الله للوعد تعالي عن ذلك علواً كبيراً.

٦٥٦. فيها: بيان وعد الله الصادق، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد.

٦٥٧. تفيد: عناية الله برسله الذين هم خيره خلقه، وصفوته.

٦٥٨. فيها: أنَّ سنة الله جارية في نصرة أوليائه، وخذلان أعدائه.

٦٥٩. فيها: بيان، وتوضيح، وتأكيد لنصـرة الله عزَّ وجل لرسـله في هذه الحياة، وفي الآخرة قال الله ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

٦٦٠. تفيد: إحسـان الظن بالله سـبحانه، وتعالى، وأنه منجز وعده فإنه سـبحانه لا يخلف الميعاد.

٦٦١. فيها: بيان أن الله عز وجل لا يمنعه مانع، ولا يحول دون إرادته شـــيء فهو الفعال لما يريد جلَّ جلاله.

٦٦٢. فيها: وعيد، وتهديد من الله عزَّ وجل لمن حاد عن الطريق، وخالف أمره وعادى رسله.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ إبراهيم:[٤٨].

٦٦٣. في مناسبة الآية لما قبلها إظهار لبطلان الشرك.

٦٦٤. فيها: بيان هول يوم القيامة.

٦٦٥. فيها: التخويف من يوم القيامة، وما فيه من أهوال، والاستعداد لهذا اليوم ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٌۚ﴾ غافر:[١٦]

٦٦٦. وفيها: صعوبة الوقوف بين يديه سبحانه يوم القيامة.

٦٦٧. فيها: من مواضع الحذف، للعلم به، حذف حرف الجر الذي هو الباء لدلّالة المعنى على العوض، والمعوّض منه كما في قوله: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾أي بغير الأرض.

٦٦٨. القادر على تبديل الأرض والسَّماوات، قادر أن يبدلَّ حالك، فلا تغتر، ولا تيأس.

٦٦٩. تفيد أسلوب من أساليب الدعوة والاقناع، وذلك بذكر مشاهد القيامة والوقوف بين يدي الله للحساب.

٦٧٠. فيها: أنَّه يستلزم من كونه سبحانه قهاراً، أن يكون حياً عزيزاً قادراً، ولولا هذه المعاني الثلاث ما كان قهاراً، ولذا قال ابن القيم في تقرير ذلك:

لو لم يكن حي عزيزاً قادراً ما كان من قهراً ولا سلطان.

٦٧١. فيها: أنَّ من لم يخضع لله بالعبادة في الدنيا، قهره الله في الآخرة؛ لقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، ولم "يقل لله الواحد" فقط، ولو شاء لقال "لله" فحسب.

٦٧٢. فيها: إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى وهما الواحد، والقهار، وما تضمنا من صفات الوحدانية، والقهر والعزة.

٦٧٣. فيها الحث على ما عند الله، والتزهيد في الدنيا، حيث إن جميع ما في الأرض يصير إلى خراب وزوال.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إبراهيم:[٤٩- ٥٠]

٦٧٤. فيها بيان أحوال المجرمين في العرض وفي جهنم.

٦٧٥. تفيد: أنَّ أهل الجنَّة يرون أهل النَّار، وما يقاســـون من أنواع العذاب، والنَّكال يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾، وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ الصافات:[٥٥] .

٦٧٦. فيها: أنَّ من صور عذاب أهل النَّار الأغلال والاصفاد، والسلاسل وهي من أشد أنواع العذاب.

٦٧٧. فيها: بيان مشهد عظيم من مشاهد العذاب المذل للمجرمين في أذل صورة، وأشنعها، وأبشعها.

٦٧٨. تبين شدة عذاب الله، وأنها لا تعدلها شدة، وتعضد هذه الهداية بقوله سبحانه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ الفجر:[٢٥].

٦٧٩. فيها: أنَّ لباس أهل النَّار نفسه عذاب كما أن طعامهم عذاب، وشرابهم عذاب.

٦٨٠. فيها: بيان صورة من صور العذاب حيث سرابيلهم، وثيابهم من مادة شديدة قابلة للالتهاب، وهي في ذاتها نتنة ريحها، وهذا غاية الذل، والتحقير.

٦٨١. تفيد: إهانة عظيمة للمجرمين في ذلك اليوم، حيث تغشى وجوههم -التي هي أشرف أعضائهم، وأكثرها وضاءة، وجمالاً، وأشدها صوناً وحفظاً عن الأخطار- النَّار، حيث لا يستطيعون رد هذه النَّار عن تلك الوجوه، فما الظن بغيرها من الأعضاء، نعوذ بالله من عذابه وأليم عقابه.

٦٨٢. تفيد أن ثياب أهل النار من مادة القطران، التي هي أشد اشتعالا، حيث يتصاعد لهيبها ليغطي وجوههم وهي صورة مرعبة للمصير المحتوم الذي يواجهه هؤلاء المجرمون.

٦٨٣. فيها أن هذا المشهد المذل للكفرة والملحدين، دال على قدرة القهار عز وجل.

٦٨٤. تفيد أن العذاب يغشى أولاً أعز ما يملكه الإنسان وهو الوجه.

قال تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إبراهيم:[٥١]

٦٨٥. فيها: أسلوب الاستطراد فقوله: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾متعلق ب"برزوا"، والجمل التي بينهما اعتراض، سيقت لتصوير ما في ذلك اليوم من أهوال.

٦٨٦. فيها: بيان الحكمة في رجوع النَّاس إلى ربِّهم يوم القيامة، وهو مجازاتهم على اعمالهم في الدنيا.

٦٨٧. في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ﴾ذكر العام بعد الخاص وهو قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠﴾ففيها زرع الطمأنينة، والرغبة فيما عند الله في قلوب المؤمنين فلا إياس من رحمته، فأفادهم أنه كما عذَّب هؤلاء ينعم أولئك.

٦٨٨. في الجمع بين ذكر الجزاء، والحساب البرهان على تمام عدلِّه تعالى؛ إذ لا يعاقب عبداً إلا بعد إعذاره، وإقامة الحجة عليه.

٦٨٩. في تقديم ذكر الجزاء على الحساب مع أنه متأخر عنه مرتب عليه، التنبيه على عظمته للاهتمام به، وزرع مهابته في النفوس.

٦٩٠. التعبير بالعموم في الجزاء، والذي يدخل فيه مجازاة المحسنين؛ والقرن بين الترهيب، والترغيب، ليكون العباد بين الخوف، والرجاء.

٦٩١. فيها: إثبات الحكمة، والتعليل في أفعال الله تعالى، وهي عقيدة أهل السنة والجماعة في الباب.

٦٩٢. منها: من تمام العدلِّ أن يحاسب من وضع الأحكام بنفسه من غير أن يوكل الأمر لغيره.

٦٩٣. في تكرار اسم الجلالة في الآية تنبيه على استحضار خشيته، ورقابته جلَّ وعلا.

٦٩٤. فيها: بيان عدلِّ الله عزَّ وجل الكامل، وأنه لا يظلم النَّاس شيئاً ولكن النَّاس أنفسهم يظلمون.

٦٩٥. فيها: الرَّد على الجبرية، فإنه أضاف الفعل إلى نفس العبد، وذلك في عشرين موضعاً في القرآن الكريم، وهؤلاء الضُّلال، قالوا العبد مجبور على فعله، وما هو كالريشة في مهب الريح كما صور مذهبهم ابن القيم رحمه الله تعالى في النونية:

والعبد في التحقيق شبه نعامة ... قد كلفت بالحمل والطيران
إذ كان صورتها تدلَّ عليهما ... هذا وليس لها بذاك يدان
جبروا على ما شاءه خلاقهم ... ما ثم ذو عون وغير معان
الكل مجبور وغير ميسر ... كالميت أدرج داخل الأكفان

وقد رد عليهم رحمه الله تعالى فارجع إليه غير مأمور.

٦٩٦. ومنها: من لم تردعه هذه الآية عن الظُّلم، وأكل الحقوق فأحسن الله عزائه في قلبه.

٦٩٧. ومنها: سرعة حساب الله للعباد فهو محصي الصغيرة قبل الكبيرة.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إبراهيم:[٥٢]

٦٩٨. تفيد: الآية بوصفها للقرآن، والتعريف به وبمزاياه، والغرض منه: أهمية التعريف بما تقدم للناس، وتكراره مراراً حتى يقنعوا بقيمته، وترسخ في الأذهان أهميته فيقبلوا عليه، ممكن القول بلغة اليوم الترويج الإعلامي، ولكنه ترويج أصيل حقيقي لا لبس فيه، ولا الباس.

٦٩٩. ومنها: هذا القرآن دستور كامل تقام به حياة أمم باختلاف طبقاتها.

٧٠٠. وفيها: أنَّ من باب عدلَّ الله أن لا يعاقب إلا بعد إنزال كتبه وإرسال رسله إثباتاً للحجة.

٧٠١. وفيها: أنَّ كل ما في القرآن بلاغ.

٧٠٢. وقد رتب – سبحانه – في هذه الآية، وسائل الدَّعوة إلى الحق ترتيباً عقلياً حكيماً، فبدأ بالصفة العامة، وهي التبليغ، ثم ثنى بما يعقب ذلك من إنذار، وتخويف، ثم ثلث بما ينشأ

عنهما من العلم بوحدانية الله – تعالى – ثم ختم الثناء على أصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بها.

٧٠٣. فيها: أنَّ البلاغ للجميع، والتذكر لأولي الألباب.

٧٠٤. فيها: أنَّ أعظم البلاغ هو ما كان بالقرآن مفيداً للإنذار محققاً للتوحيد مؤدياً للتذكر، والاعتبار من أولي الألباب.

٧٠٥. في تخصيص النَّاس بالذِّكر مع أن الجن داخل فيه إشارة إلى أن الانتفاع به من النَّاس أكثر من غيرهم.

٧٠٦. فيها: أنَّ كثرة اللامات تدلَّل على أهمية التعليل، فرب العزة مع عزته يعلل لعبيده، فمن نحن حتى نترفع؟! ونعطي الأوامر.

٧٠٧. يؤخذ من الآية أن أسلوب الترهيب نافع مع بعض المدعوين؛ أخذ من قوله: ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾، فإن الإنذار هو الإعلام مع التخويف.

٧٠٨. فيها: بيان أن الله جلَّ جلاله واحد لا شريك له فهو الذي يستحق العبادة دون سواه.

٧٠٩. منها: تلخيص الوعظ بعد نهاية الكلام بكلمة، أو سطر من البلاغة.

٧١٠. فيها: بيان أن من يتعظ بهذا القرآن إنَّما هم أصحاب العقول الواعية فيسلكوا سبيل النجاة لينالوا رضا ربِّهم، ويسعدوا برضاه وجنته.

٧١١. فيها: أسلوب التشويق الخفي لصفات أولي الألباب مما يعين على البحث، والتدبر.

٧١٢. فيها: إثارة العقل للاطلاع، والبحث منهج قرآني.

٧١٣. فيها: أن العقل كلما ترفع عن السفاسف حظي بأكبر نصيب من معالي الأمور.

٧١٤. فيها: حسن الختام، فهو في نهاية الكمال، والجمال في قوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٧١٥. تفيد: فضـــيلة العقل فإنّ الله عزَّ وجل لم يخاطب إلّا أهله، وجعل التكليف عليه ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٧١٦. هذه الآية دالة على أنه لا فضـيلة للإنســان، ولا منقبة له، إلا بسـبب عقله، لأنَّه – تعالى – بين أنه إنَّما أنزل هذه الكتب، وإنَّما بعث الرَّسل، لتذكير أولى الألباب[1].

أحق بحسن ابتدائي ما أنال به حسن التخلص يتلو حسن مختتمي.

٧١٧. فائدة: وســئل بعضــهم هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم، قيل: وأين هو؟ قال قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾[2].

٧١٨. تفيد أهمية بيان فضـــل القرآن الكريم ومكانته ومنزلته للناس، وهذا ما جاء في مطلع هذه السورة وفي خاتمتها.

بحمد الله تعالى

وبهذا تمت سورة إبراهيم في ٧١٨ هداية

بتاريخ ٢٦/١٠/١٤٤٢هـ

ولله الحمد والمنة ومنه التوفيق والعصمة.

تلخيص دكتور محمد عبد الرازق مصطفى

(١) تفسير الرازي ١٩/ ١١٠.

(٢) تفسير القرطبي٩/٣٨٥.